obeikandl.com

أمريكا... سياسة تضليل الشعوب

obeikandl.com

سـحـر زيـنـاتـي

أمريكا...
سياسة تضليل الشعوب

إعـداد

المركز العالمي للاستشارات الإستراتيجية

obeikandl.com

ⓒ مكتبة العبيكان، ١٤٢٥هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

المركز العالمي للاستشارات الإستراتيجية

أمريكا: سياسة تضليل الشعوب. / المركز العالمي للاستشارات الإستراتيجية. - الرياض، ١٤٢٥هـ.

١٠٢ ص؛ ١٤X٢١سم

ردمك: ٧-٥٥٦-٤٠-٩٩٦٠

١- الرأي العام - الولايات المتحدة ٢- الدعاية

٣- الرأي العام أ - العنوان

ديوي ٣٠١,١٧٣ ١٤٢٥/٥٩٢

ردمك: ٧-٥٥٦-٤٠-٩٩٦٠ رقم الإيداع: ١٤٢٥/٥٩٢

الطبعة الثانية

١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م

توزيع

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

obeikandl.com

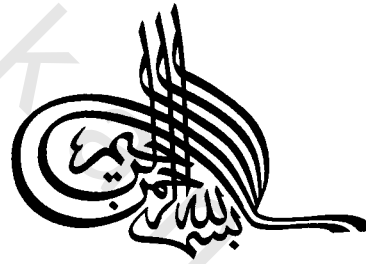

obeikandl.com

obeikandl.com

مُقَدِّمَة..

بقلم رئيس المركز

التضليل سياسة فرعونية، تعني مصادرة الآخر في حق المعرفة والإطلاع، بل هي من ناحية أخرى تزييف للحقيقة ذاتها، ولقد مارس فرعون مثل هذا حين قال لشعبه: «ما رأيكم إلا ما أرى وما أهديكم إلاّ سبيل الرشاد».

ولقد دأبت الحكومات الأمريكية المتتالية على ممارسة التضليل، ولتوجيه الرأي العام الأمريكي وجهات تخدم سياسة أقليات مشبوهة، ولوبيات متنفذة.. ولأن القضية تعد ذات خطر كبير فقد كلفْنا في المركز العالمي للاستشارات الإستراتيجية الباحثة سحر زيناتي لوضع ما من شأنه كشف اللثام عن تضليل الحكومات الأمريكية لشعبها كامتهان وتجاوز له ولحقوقه.. آملين أن يكون ذلك وقوفاً منا في صف الحقيقة، لا غير الحقيقة...

سعيد بن صالح الغامدي

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

لم يكن ريتشارد كابوشينسكي ـــ الصحفي البولوني / العالمي الشهير ـــ على صواب حين قال في أحد مقالاته الأخيرة والتي أثارت ضجة كبيرة:

«لم يكن القرن العشرون فقط قرن الحروب والأنظمة الشمولية، بل كان أيضاً قرن الخلاص من الاستعمار ومسيرة تحرر طويلة المدى، فقد تمكن ثلاثة أرباع سكان الكرة الأرضية من التخلص من الهيمنة الاستعمارية، وأصبحوا على الأقل رسمياً مواطنين يتمتعون بحقوقهم، وأمر كهذا لم يحدث في التاريخ أبداً، وما أظنه سوف يتكرر. وقد تركز حكم الرأي العام المعاصر حول خلاص من الاستعمار على المظاهر السياسية والاقتصادية وحول مسائل تتعلق بأنظمة الحكم في البلدان الجديدة، وحول المساعدات الدولية والديون ومقاومة المجاعات».

وحقيقة الأمر أن خدعة حقوق الإنسان، والعدالة، والمساواة أصبحت كذبة عالمية لم تعد تنطلي لا على الجائع إلى كل حقوقه الإنسانية، ولا على المتخوم بكل حقوقه الإنسانية أيضاً، على الأقل فإن الأخير يؤمن أنه بماله فقط حصل على حقوقه، وليس بقرار من منظمة حقوق الإنسان العالمية، والتي لم يعد لها، مثلها في ذلك مثل

جميع المنظمات الإنسانية والقانونية في العالم، ذلك المفعول وذاك البريق الساحر، بعد أن فقدت، فيما فقدت، قدرتها على جعل البشرية تعيش بأمان وسعادة. وقد قالها توماس فريدمان صريحة لحكومته إبان حربها على العراق:

«ربما يتوقف العراقيون في نهاية المطاف عن مقاومتكم، لكن ذلك لن يضفي الشرعية على هذه الحرب، وما تحتاجه الولايات المتحدة الأمريكية هو أن تجعل العراقيين يبتسمون. وإذا ما فعلتم ذلك فإن الناس سيعتبرون ذلك نجاحاً»(١)

ولم يحدث أن خلّفت أمريكا وراءها شعوباً تبتسم بعد أي حرب خاضتها، وفي أمريكا قد يبتسم الشعب سذاجة أو جهلاً أو حتى غروراً، لكنه يُستبعد أن يبتسم سعادة لأن الشعوب نادراً ما تلمس بيدها مقومات سعادتها الكامنة في شفافية وصدق حكوماتها معها، وهذه نتيجة طبيعية لوجود حكومات لا تنفك ترتدي جلوداً سوداء وأقنعة بيضاء، كما قال كابوشينسكي.

وقد لا تكون نوايا توماس فريدمان تجاه قضايا الآخرين محل ثقة وخاصة المصيرية منها، إذ أنه اعتاد أن يتعامل كالوصي الفكري، مع ذلك فإن ما قاله يستحق التوقف ويستوجب إعادة النظر لأنه يركز في مقاله ذاته على «الأغلبية الصامتة» التي يراهن عليها مستقبلاً.. فإذا كان المفكرون الأمريكيون وحلفاؤهم يتصورون أن الشعب..

(١) الشرق الأوسط بتاريخ٢٠٠٣/٤/٣ (بالتنسيق مع نيويورك تايمز).

أي شعب مهما بلغ من الفوران كبتاً، والصمت خوفاً، يمكن له «أي للشعب» أن يسمح بأن يكون خلاصه على يد ملطخة بالدماء، ليُحْكَم بقانون وشريعة لا يعترف بهما، وتحت تهديد سلاح أتى بكل ما أوصل هذه الشعوب إلى ما هي عليه، وجاء بأنظمة إما عميلة أو موالية أو لا تملك سوى أن تفكر بمصالحها ومكاسبها وعلى حساب أرواح وأرزاق وكرامات شعوبها، أو على أقل تقدير لا حول لها ولا قوة.. وتحت تهديد هذا السلاح، قتلت أرواح وطموحات وتطلعات.. تحت تهديده، سيقت شعوب كالنعاج إلى مصائرها المخزية برصاصات إعلامٍ مضلل بعد أن شوه لها الحقائق وسلب منها حقوقها حتى في التفكير، فكيف تقرر هذه الشعوب مصيرها وهي المحرومة من حقها في حرية التفكير والتعبير؟

ومهما طال استسلام الشعوب لقاتلها وسارقها ومستعبدها فإن الزمن لا يتوقف «فالخير في أمتي إلى يوم القيامة»، والأغلبية الصامتة لا تبقى كذلك طويلاً..وإلا فما كان هناك أصوات تهتف استنكاراً؟ ورايات ترتفع غضباً وحنقاً؟ وجموع تحتشد طوعاً لتعبر عن رفضها للحرب الأمريكية على العراق وقبل أن يثبت بطلان الذرائع التي كانت قامت الحرب على أكتافها.. لماذا نسمِ كل هذا..؟!! هل هي صحوة الموت؟ هل هي يقظة الحياة؟ هل هي انبعاث جديد لإيمان قديم؟.. إحياء لدين تم تخديره بكل الوسائل؟!! صحوة لقيم ومبادئ وأخلاق كدنا نفقدها لولا رحمة الله؟ أم لعله الولاء الذي تاه من الإنسان لسنوات حتى لم يعد يعرف إن كان ولاؤه لثقافة غربية،

لدين أصيل، لوطن متعدد الوجوه وبالتالي متعدد الولاءات، فتراه تارة ليد تسدّ جوعه.. وتارة يزحف وراء ثقافات تكاد تنهيه، وأخرى تراه فيها يلعق بقايا أيديولوجيات أتى عليها الزمن.. ولم يعد المواطن يعرف إلى أي وجوه مرآة مصالحه ينظر.. لقد أدركت الجموع التي صحا ضميرها أن الخطر لن يلبث أن يحدق بها؟.. فتجمعت لتصرخ معهم بصوت واحد تردد صداه في شوارع العالم أن: كفى.. لا للظلم.. لا للعبودية.. لا للعنجهية.. ولا للتكنولوجيا التي مهما بلغت، لن تغلب إرادة الشعوب المؤمنة بحقوقها وحريتها.. المؤمنة بأن عبوديتها لله وحده.. وأن ولاءها لدينها فقط وأن دماءها فداء لوطنها.. وأن نشدانها للشهادة يفوق بكثير سعيها لحياة غربية فانية.. ولها، كما للجميع، في الشعب الفلسطيني أسوة حسنة، الشعب الجبار الذي يصحو على موسيقى الرصاص، ويرقص على نغمات المدافع والدبابات، وينام على دندنات أمٍّ تقوي عزيمة ولدها قبل أن يذهب للشهادة وتحذره ألا يدير ظهره لعدوه.. بل يواجهه وجهاً لوجه.. وبكل شجاعة وتحدٍ.. هذه هي المرأة المسلمة سليلة سميّة أول شهيدة في الإسلام والتي جعل منها الظلم الواقع على الأمة حالة عامة وليست استثنائية، بدليل تزايد عدد الشهيدات والاستشهاديات. فعلى أية «أغلبية صامتة» يراهن فريدمان؟

إن الشعوب تستنكر وتعيب على بوش نفسه أسلوبه المضلل لشعبه الطيب الذي يقول له رئيسُه أن «أمريكا تستخدم قوتها في سبيل تحقيق العدالة».. إن عدالة اليوم معجونة بأرواح الأطفال

والنساء والشيوخ، عدالة تناولهم وجبة غذائية باليمين لتمطرهم بوابل من الرصاص باليسار، عدالة تدمر البيوت وتدك الأبنية.. ثم بالحرية وبالديمقراطية تعد أصحابها.

تتحدث أمريكا عن العدالة وتبحث عن الإرهاب في الوقت الذي تحتجز أكثر من عشرة آلاف أسير عراقي دون محاكمة وبظروف لاإنسانية وتعتم على أوضاعهم كل التعتيم؟!! تتحدث أمريكا عن الدكتاتورية العراقية بل العربية وتتجاهل لاشرعية أوضاع معتقلي غوانتانامو وتعتم عليهم كل التعتيم؟ إن أمريكا تعرف كل شرور العالم قبل وقوعها ولا توقفها إلا متى تطلبت مصلحتها ذلك؟ مع أنها تملك وكالة استخبارات عالمية حجزت ميزانية لمعرفة أسرار العالم تقدر بـ ٢٧ مليار دولار فقط. إن أمريكا وباستمرار ترسل رسائلها الملغمة إلى العنوان الخطأ، تماماً كما أخطأت دائماً في حساباتها، وآخرها بشأن المقاومة في العراق والتي راهنت مع حليفاتها عليها وعلى أنها ستكون حليفتها ضد النظام العراقي..لقد اعتمدت حساباتها وحسابات مستشاريها على أن الكبت الذي يعيشه الشعب العراقي، الذي سمّاه فريدمان (الأغلبية الصامتة)، لن يلبث أن ينفجر في وجه نظامه (الدكتاتوري) ليشكّل دعماً قوياً لها، فماذا كانت النتيجة؟!! وماذا رأت من الشعب العراقي الذي جاءت تغسل آلامه بدمائه وتحرره من عبوديته بدباباتها وطائراتها والتكنولوجيا التي قوبلت بإرادة شعبية يقودها الإصرار على الحياة الكريمة ومشاعر الولاء الكامل للوطن أولاً وأخيراً..

لقد كان (الكذب) هو سلاح هذه الحرب بلا منازع وليس التكنولوجيا المتقدمة التي راهنت عليها الإدارة الأمريكية والتي لم تستطع أن تحمي جنودها من المقاومة الوطنية على بساطة آليتها فيما بعد، ورغم حرَفيتها في هذا، إلا أن أمريكا،بالوقائع والمعطيات الجديدة، لم تعد تقنع العالم بأكاذيبها وصار صوت الحقيقة أعلى من صوت ادعاءاتها والاعتراف بزيف المعلومات وكذب المصادر لا يكفي تبريراً لحروب أمريكية لا تنتهي ولجشع لا حدَّ له.. لذلك فإن أكاذيب أمريكا لم تعد قابلة للتصديق، كما لا يمكن أن يَصْلُحَ في الثوب المهترئ أي رتق.. بل إن الرتق سيزيد الثوب تشويهاً.

إن الشعب الأمريكي مضلل من إعلامه اليهودي الصهيوني لكنه لن يلبث أن يصحو من سباته، على حياة جديدة، بظروف جديدة، ومعطيات جديدة، ستجبره على التوقف عندها شاء أم أبى، إن هذا الشعب الذي لا يعرف غالبيته أين يقع العراق لا يمكن له أن يعرف إن كانت حكومته على صواب في حربها على هذا (العراق) وفي أنها حرب عادلة أم لا وقرارها بهذا الشأن قرار سليم أم لا.. فالشعب المغيب طوعاً وتضليلاً عما يحدث خارج أسوار ولاياته المتحدة لن يلبث وبسبب تداعيات هذه الحرب المدمرة عليه، أن يخترق هذه الأسوار وحينها ستنقلب جميع إحصائيات المؤسسات المعنية بأفكار الشعوب ومستوى ذكائها ونسبة معلوماتها.. بل والأهم من ذلك كله نسبة الديمقراطية الحقيقية التي يعيشها الأمريكيون داخل أمريكا

من جهة وتلك التي يتعاملون بها و(على أساسها) مع العالم خارج أسوار الولايات المتحدة من جهة أخرى.

وقد يكون الشعب الأمريكي مضللاً لكنه ليس غبياً وهو ليس بالشعب القطيع الذي يجري وراء الراعي دون تفكير مكتفياً بالهتاف والتصفيق في كل مرة يذكر فيها الرئيس أمريكا.. حرية أمريكا.. العدالة.. الديمقراطية.. وغيرها من المصطلحات المستهلكة.. والكلمات الرنانة التي هي أبعد ما تكون على أرض الواقع عن معانيها الحقيقية..

إن العالم يتساءل، وهو ينظر إلى الرئيس الأمريكي على شاشة التلفاز وهو يبتسم بخبثٍ لأنه قادرٌ على خداع شعبه بهذه البساطة، بهذه السذاجة:

هل حقاً يصدق الشعب الأمريكي رئيسه؟!!

إننا لا ننطلق في حكمنا عليه فقط من ظلمه للآخرين ومن عنجهيته عليهم و.. و.. كما هو شائع، بل ومن السياسة الداخلية التي يتبعها مع شعبه.إذ حتى على الصعيد الداخلي، لا تنفك الحكومة الأمريكية تخفي عن شعبها حقيقة أوضاع البلاد الاقتصادية فتدّعي أمامهم وفي تصريحات عامة ورسمية أن نسبة البطالة في انخفاض، وتحدد النسبة (الوهمية) مع أن الآلاف من الأمريكيين مازالوا يفقدون وظائفهم وباستمرار!! وفي تقرير مختلط عن الوظائف نشر لاحقاً قالت وزارة العمل أن معدل البطالة قد انخفض إلى ٦،٢ % من ٦،٤

%في تموز ٢٠٠٣ في الوقت الذي تقلص فيه عدد العمال على كشوف الرواتب بمقدار ٤٤ ألفاً في الفترة المذكورة!!

وما هذا التضليل إلا محاولة فاشلة للتغطية على سوء الأوضاع المالية والاقتصادية للبلاد فقد أظهرت التقارير على أن الولايات المتحدة الأمريكية تواجه أسوأ انخفاض مالي منذ الحرب العالمية الثانية، حتى اضطرت العجوزات في الميزانية الولايات إلى اتخاذ الإجراءات للتخلي عن الكثير من الخدمات التي كانت تقدم مجاناً وكانت تعتبر من الأساسيات بالنسبة للشعب، وقد طالت عملية التخلي هذه الخدمات التي كانت تقدمها المدارس كالمواصلات والرسوم والملاعب الرياضية، وبعض الولايات لجأت إلى خفض أسبوع أيام الدراسة إلى أربعة أيام، وفي إحدى مدن ولاية أوريغون التي تأثرت بشدة في الأوضاع المالية للبلاد لجأ أكثر من ٥٠ من أولياء الأمور إلى التبرع بدمائهم للحصول على ٣٠٠٠٠ دولار للمساعدة على دفع رواتب المعلمين!! وفي هذا يقول نورمان سولومون، وهو كاتب أمريكي متخصص في وسائل الإعلام الأمريكية:

«لقد تبين أن رئاسة جورج دبليو بوش مريعة جداً من أوجه عديدة إلى درجة أن ديمقراطياً جباناً وداعماً للشركات من شأنه أن يشكل تحسيناً كبيراً في بعض النواحي المهمة».

إنها أمريكا اليوم.. وهذه هي حكومتها المعنية بشؤونها، والتي تخوض الحروب الخارجية لتحافظ للشعب الأمريكي على أمنه

واستقراره.. وتتجاوز تضحياتهم ومآسي أسرهم، فيقول لهم الرئيس: «إن الشعب الأمريكي لن ينسى هؤلاء المناضلون في سبيل تحقيق الحرية والعدالة للعالم».. إن فرعون حين سئل: من جعلك كذلك؟ أجاب: «لم يردعني أحد». وحين أينعت قامات لتردع أمريكا، كان لها الإرهاب الحقيقي بالمرصاد بعد تصنيفها تصنيفاً خاصاً يدرج اسمها إما على قائمة «الإرهاب» لتصدر القرارات بوجوب محاربتها وإنهائها، أو في قائمة التهديد المؤجل لانتزاع التنازلات والمكاسب منها، بينما يتم تصنيف الدول الخانعة للأوامر وللمصالح في قائمة الحلفاء الذين يستحقون كل الدعم والتأييد، وطبعاً دون أن تكون هناك صداقة حقيقية مع أحد.. إن ما يربط أمريكا بالعالم أجمع هو مصالح حقيقية فقط.. وقد اعترف بذلك أحد رؤسائها السابقين إذ قال: «ليس بين الدول صداقة،هناك مصالح فقط» وكما لكل حرب دروسها وعبرها بل وسمات خاصة تتسم بها.. فإننا نستطيع أن نطلق على حرب أمريكا على العراق: «حرب الكذب» طالما أنها لا تصب في خانة الدفاع عن الوطن والذود عن الحق.. حيث بدأت بالكذب حول سبب هذه الحرب التي قيل أنها لإزالة أسلحة الدمار الشامل من العراق، مع أن توماس فريدمان، أيضاً، نصح حكومته آنذاك بالتخلي عن هذه الكذبة (الذريعة) التي ستورطها في حال لم تجدد ما تبحث عنه، وقد كان على صواب في نصيحته كما ثبت لاحقاً، فما كان من الحكومة سوى إضافة الادعاء من جديد، بأنها آتية لتحرير الشعب العراقي من استبداد نظامه ولنشر الديمقراطية والحرية معتمدة في ذلك على الكبت الذي يعانيه العراقيون

وعلى «الأغلبية الصامتة» التي تحدث عنها فريدمان.. ورحل النظـــام.. ولم ترحل أمريكا رغم ما تتكبده من الخسائر وخاصة في الأرواح نتيجة المقاومة الضارية التي بدأت تشتد لتثبت لأمريكا أنها لن تقبل بـــديكتاتور جديد أياً كانت هويته ومهما كانت شعاراته براقة. ولم تكتـــف الإدارة في أمريكا بالكذب فقط فيما يخص الأسباب، بل تابعت ذلك حتى فيما يخص سياق الحرب وحول كونها مدعومة من تحالف واسع النطاق يتسم بالتعددية وما إلى ذلك من الادعاءات التي أقرّ كذبها تومـــاس فريـــدمان حين قال:

«.. أما عن أعضاء إدارة بوش فلا زالـــوا يكـــررون الفكـــرة الممجوجة القائلة أن هذا التحالف الغبي المرقع الذي أنشؤوه لخـــوض الحرب على العراق يتسم بالتعددية والجماعية، وبالتالي فإنه مكـــافئ من الناحية الأخلاقية للأمم المتحدة، وما هذا سوى محـــض تلفيـــق وافتراء، فما عدا بريطانيا يجب علينا أن نقـــر بأننـــا اشـــترينا هـــذا التحالف، كيف لا وكل هذه الحكومات ـــ عداها ـــ قد جاءت إليه وهي مجردة من دعم شعوبها لها ومعترضة على دخولها في التحالف؟» ويتابع مستنكراً تجاهل هؤلاء لصعوبة تحقيق أهـــدافهم في المنطقـــة فيقول: «.. وإذا كان خوض الحرب في العراق بمعزل عن الشـــرعية الدولية أمراً من الصعوبة بمكان فما بالك بمهمة بناء الأمم التي هـــي أصعب من خوض الحرب بكثير..». (١)

(١) في مقالة نشرت في جريدة (الاتحاد) الإماراتية والذي ينشر بالترتيب مع خدمة «نيويورك تايمز» ٢٨ محرم ١٤٢٤ هـ الموافق ٢٠٠٣/٣/٣١.

ومن شأن مراقبة دقيقة لحال العلاقة بين أميركا وما وصفه رامسفيلد «بأوروبا العجوز» أن توضح أن توني بلير الذي لم يحسن تمثيل شعبه ومملكته، فإنه بالتالي لا يمثل أوروبا، لأن خيبة الأمل الأوربية بأمريكا باتت أكبر من أن ترقّع بتصريح أو بيان أو تكذيب أو تبرير بعد أن كانت تعتبرها نموذجاً رائعاً للعظمة والحضارة وحسن الإدارة، فإذا بمصداقيتها تتداعى وهيبتها تتلاشى وعظمتها تتبخر في الفضاء الأوربي لتنتشر في فضاءات العالم على رأي أحد الصحفيين التشيكيين في حديث له مع ديفيد إجناتيوس. وهاهي هولندا وهي من أعرق وأقدم دول أوروبا عاشت منذ بداية الحرب ازدواجية كاملة بين حكومتها الداعمة للحرب الأميركية على العراق وشعبها الرافض تماماً للحرب، وقد عبّر عن ذلك بكل أنواع الاحتجاجات.

يقول أستاذ جامعي هولندي:

«إن الحكومة والشعب الهولندي في حاجة إلى من يخبرهما أن جورج دبليو بوش ودونالد رامسفيلد ليسا بالصورة التي يبدوان عليها.. وهم يريدون أن يصدقوا أن هناك أناس جادين موجودين في مكان ما في واشنطن مازالوا يمسكون بزمام الأمور..»

وهنا تتجلى الخيبة الأوروبية إزاء إمكانية رأب الصدع بين أميركا والاتحاد الأوربي، ولو تم تجاوزه ظاهرياً لمصلحة جميع الأطراف، خاصة مع وقوف بريطانيا إلى جانب أميركا في سياستها بعد أن كانت المعول عليها في تصحيح مسار الطرفين وتقريبهما.

ويبدو أن توني بلير قد فشل في إقناع أوربا وحتى أمريكا بأن مهمته هذه ستحظى بالنجاح المتوقع.. لأن أحداً لم يعد يثق بأمريكا وقراراتها، ولم تعد ـــ بعد ذلك ـــ تجدي تصريحات توني بلير وتأكيداته أن أميركا ستلتزم بوعودها تلك ـــ يقول وليام فاف ـــ المحلل السياسي عن تصريحات توني بلير:

«بهذه التصريحات فإن بلير يكون قد عبر عن رغبات الاتحاد الأوروبي ككل.. بيد أنه ـــ وسواء أقر بذلك أم لا ـــ كان يتحدث إلى (المحافظين الجدد) باسم (أوروبا القديمة) وبالتالي فإن الأمر لا يحتاج منا إلى قدر كبير من البصيرة للقول إنه كان يضيع وقته فيما لا طائل من ورائه.. فهو لم يكن يتعامل مع أمريكا (القديمة) التي يتذكرها الشعب الهولندي بالإعجاب، وإنما كان يتعامل مع أمريكا (الجديدة) التي تتبنى رؤية أيدلوجية لا يقبلها ولا يوافق عليها أحد خارج الولايات المتحدة الأمريكية..»

وهذا يوضح فشل سياسة توني بلير الذي انخفضت نسبة شعبيته كما بينت الاستطلاعات الأخيرة في بريطانيا التي قام بها معهد آي سي إم وكانت نتيجتها أن ٥٤ % من البريطانيين مستاؤون من رئيس وزرائهم وبفارق ١٧ صوت لصالح المعارضين له، ولا يخفى على المراقبين أن براعته في الخطاب ودبلوماسيته عالية المستوى كان لهما دور كبير في خداع الناس وبالتالي في تأييدهم الببغائي له. إلا أن عجلة الزمن لا تتوقف، بل هي في دوران مستمر، فهاهي براعته في الحديث تبهت ويشحب لونها وبح صوتها على خلفية فشله على

الصعيد الداخلي أيضاً، حيث ترى نسبة كبيرة من البريطانيين أنه قد خذلهم حقاً.. وهذه ليست رؤية وحيدة الاتجاه، بمعنى أنها ليست شعبية بسيطة فحسب، كما أنها ليست رسمية مغرضة فقط، فقد توافقت الرؤيتان، وصار عرضة للانتقاد من الجميع بما فيهم حزبه نفسه، رغم دعم الأخير له في نواح معينة في البرلمان.

ومن ناحية أخرى فإن بريطانيا التي قيل أن ٥٩ % من سكانها يؤيدون الحرب، وأن شركاتها قد تكتشف فقدانها للكثير من عقود إعادة الإعمار في العراق، وسيُكشَف زيفُ هذه النسبة، وعوار هذه الإحصائيات لتدرك أن هرولتها وراء أمريكا ومحاولات السير في ركبها لنيل بعض من فرص الانتعاش الاقتصادي لشركاتها كانت، كالعادة، مجرد طعم أمريكي ابتلعته بريطانيا، وذلك لأنها لم تفهم جيداً أن من تخاطبها هي أمريكا الجديدة، أمريكا المصالح، أمريكا «وحيدة القرن» وأنها ــ أي بريطانيا ــ لسبب أو لآخر قبلت على نفسها وهي أعرق دول أوروبا، لقب (العجوز) الذي نعتها به رامسفيلد، ولعل أهم ما خسرته بريطانيا في هذا الولاء لأمريكا هو مصداقيتها أمام العالم وأمام شعبها أولاً وأخيراً.وكان الأجدى لها أن تحترم إرادة الشعب البريطاني الذي عارض سياسة حكومته حتى أن وزير خارجيتها السابق روبين كوك فاجأها بتقديم استقالته احتجاجاً على الحرب وقد ثبت لاحقاً أنه كان على صواب بعدم قناعته بأسباب الحرب وذرائعها جميعاً، ورداً على سؤال خلال لقاء أجرته معه مجلة «نيوز ويك» حول العثور على براهين عن وحشية صدام (المقابر الجماعية) أجاب كوك:

«لم أشك في أي وقت مضى بوحشية صدام حسين، إلا أن أياً من الحكومتين (في الولايات المتحدة وبريطانيا) لم تركز مبرر الحرب على مسألة الوحشية، وذلك لسبب بسيط هو أن لا وجود لأي قاعدة في القانون الدولي تجيز خوض حرب ما بحجة تغيير النظام الحاكم. وفي حال قررنا أن نخوض حروباً بغية الإطاحة بالأنظمة الوحشية، فإن أمامنا إذاً جدول أعمال مليئاً جداً. لم نقترح التدخل من أجل تخليص شعب زيمبابوي من حكم الرئيس روبرت موغابي المتعسف، لم نقترح التدخل في بورما حيث حكمت العصبة العسكرية البلد لفترة زمنية تفوق مدة حكم صدام حسين.. إننا نتجاهل عدد الضحايا في الكونغو الأهلية، وهي تتعدى عدد الضحايا التي وقعت داخل العراق. إذا تم اعتماد القرار بأن الوحشية هي سبب التدخل العسكري، يجب أن تتخذ فرقاء عدة هذا القرار في إطار تجمع دولي، لا يجوز أن تقوم أمم بمفردها، مثل المملكة المتحدة أو الولايات المتحدة باتخاذ القرارات من جانب واحد، وتختار بالتالي من سيكون هدف هجومها التالي. إن السبب الجوهري وراء هذا الموقف هو أنه إذا ما قبلنا بمبدأ إمكانية اجتياح بلدان لبلدان أخرى بحجة عدم الرضى بالنظام الحاكم، في المرة المقبلة قد لا تكون الولايات المتحدة أو المملكة المتحدة هي العاملة بهذا المبدأ»

واستمراراً لما قاله وزير الخارجية السابق روبين كوك حول الكيل بمكيالي الديمقراطية الغربية المزدوج، تقول هيلين توماس عميدة السلك الصحفي في البيت الأبيض التي قالت في هذا الاتجاه:

«لقد أخطأت الحكومة الأمريكية في دخولها العراق حتى لو كان صدام حسين وحشاً، فمهمة إقصائه تقع على عاتق الشعب العراقي. وكان يمكن الاكتفاء بعمليات التفتيش الدولية».

أما ويليام شولتز المدير التنفيذي لمنظمة العفو الدولية فقد علق على الحرب قائلاً:

«.. إننا مهما أثنينا على عملية إقصاء صدام حسين من ناحية تحسين حقوق الإنسان في العراق، فإن مجزرة ضد نحو ٧٠٠٠ شخص تم ارتكابها في الوقت نفسه في الكونغو، من دون أن يعطيها العالم أي نوع من الاهتمام».. ويتابع قائلاً:

«إن الولايات المتحدة الأمريكية قد ركزت بشكل حصري في كولومبيا على حرب المخدرات وتجاهلت حقيقة أن الجيش الكولومبي والقوات شبه العسكرية مسؤولة عن نحو ٨٠% من القتلى المدنيين الذين لا علاقة لهم إطلاقاً بحرب المخدرات، لكننا ما فتئنا نتكتم على مثل هذا النوع من السلوك بسبب تحالفنا مع الحكومة الكولومبية».

وخسرت بريطانيا مجدداً بسوء تقديرها بشأن الحرب وأسبابها ونتائجها والتوقعات الخاصة بها بل وبكل ما فعلت إزاءها من تصريحات ومعلومات استخباراتية أوصلت أطراف الحرب جميعاً إلى الجدار. لكن خسارة بريطانيا كانت مختلفة وعلى جميع الأصعدة ومنذ البداية، فهي حتى لم تحذ حذو فرنسا التي بدأت حملتها ضد أمريكا وبريطانيا رافضة الحرب منذ بداية الترتيبات الأولى لها.. واستعرضت

عضلاتها لتحافظ على ماء وجهها في استقلالها عن القرار الأمريكي وإثبات قدرتها على الانفراد بقرار منفصل مهما كانت نتائج المواجهة التي كانت تحسب لها فرنسا حسابها جيداً.. فلو امتثلت أمريكا للرأي العام العالمي وللشرعية الدولية و لم تخض الحرب لاحتفظت فرنسا بهيبتها وقرارها ومكانتها في أوربا والعالم كله، وبذلك تتمكن من تثبيت قدمها في حلف الناتو التي تحاول أمريكا أن تكون أيضاً الفاعل الأقوى فيه.. مكاسب كثيرة كانت فرنسا ستحققها لو أن أمريكا لم تشن الحرب على العراق.. لكن هذا كله لا يعني أنها ستكون خاسرة بعد الحرب.. فلقد عادت لاحقاً لخطب ود أمريكا ولتؤكد أنها حليفتها كما هي عادتها.. وأن لرفضها الحرب أسبابه مثلها في ذلك مثل جميع الرافضين، وأنها كانت على الدوام حليفة أمريكا، رغم أنها قد عارضت أن يحكم الأمريكيون العراق بعد صدام ولو لفترة مؤقتة.. لأنها تخشى في هذه الحال، أن تُحْكِمَ أمريكا قبضتها على فرص التعاقد التي ستمنحها بالتأكيد للشركات الأمريكية حصراً لإعادة إعمار البلد المنكوب، لذلك عادت فرنسا لتخفف من لهجتها المنددة بالتفرد الأمريكي بالقرارات الخاصة بالعراق ومشاكل المنطقة.وذلك بعد أن بدأ الأمريكيون بالتلميح بأن فرنسا قد خيبت آمالهم وخذلتهم بعد أن قدموا لها السند والدعم في تحريرها، وأسفوا لأرواح الأمريكيين الذين قضوا في سبيل حرية فرنسا، وأتبعت الحكومة الأمريكية ردها على الموقف الفرنسي بالتوجه إلى أفريقيا ومحاولة الحد من السيطرة الفرنسية على بعض

المواقع هناك، مما يؤكد وجود بصمات أمريكية على بعض الانقلابات ومن بعدها التسويات في بعض المناطق الفرنسية من القارة السوداء.

وبسبب هذه الأكاذيب الأمريكية وأوهامها التي لم تعد تنطلي لا على الأمريكيين ولا على غيرهم، تحولت أمريكا على حد قول باتريك سيل — من صرح للحرية ذات يوم إلى دولة ترتكب هذه الأخطاء التاريخية الفادحة..

إن الأطراف الفاعلة في الإدارة الأمريكية تراهن على تسليم الرأي العام زمام أموره حدّ (الانبطاح) معتمدة على حالة النسيان والضجر لدى الرأي العام الأمريكي، وغير الأمريكي، متخذة عدم التطرق مجدداً إلى أحداث أيلول ٢٠٠١ مثلاً.. وتجاهل أحداث أفغانستان، بعد فترة وجيزة منها، نموذجاً، وتستمر اللعبة لتبدأ الآن بالتلويح لنصر جديد هنا(إيران) أو هناك (أفريقيا) لتتجنب المساءلة والمسؤولية حول فشلها في العراق، سواء في فيما خص كذب المعلومات أو في حماية جنودها من المقاومة الوطنية التي صارت تكدسهم بالعشرات، أو في الفوضى التي سادت البلد (المحرر) بدل الحرية والنهب بدل (الاستقرار) التي وعدت الشعب العراقي والعالم به.

ومن خلال نظرة فاحصة وعاجلة على الممارسات الأمريكية داخل كما وخارج أمريكا يدرك المرء مدى زيف هذا المصطلح (الديمقراطية) أمريكياً.. وكيف تستخدم أمريكا كل تفسيراته وتأويلاته دون أن تقر به لا مع نفسها.. ولا مع غيرها.. وإلا فأين

رأي الذين يعارضون الحرب في أمريكا؟ أم لأن الديمقراطية الغربية تؤمن برأي الأغلبية وتتجاهل رأي الأقلية فإنها قد اتخذت القرار ضاربة عرض الحائط رأي هذه الأقلية هناك ومعتمدة على الإحصائيات المزيفة التي تجريها بعض المؤسسات المهتمة مثل مؤسسة (جالوب) التي أسفرت نتائج استطلاعاتها عن أن 79%من الأمريكيين يؤيدون الحرب على العراق (رغم أن13% منهم فقط يعرفون أين تقع العراق) فإذا كانت هذه هي الديمقراطية.. وهذه تفسيراتها فأين هي خارج أسوار الولايات المتحدة التي تحارب العالم باسمها؟!! وماذا تعني الديمقراطية خارج أسوارها؟!! ولماذا يختلف مفهومها خارج الولايات عن مفهومها داخل الولايات؟!!

إن الأغلبية في العالم أجمع رفضت الحرب.. واستنكرتها واحتجت بكل الصور عليها.. فلماذا لم تعرها أمريكا انتباهها تحت شعار الديمقراطية؟ وهي تدرك أن الإرغام ممنوع في القوانين والأعراف وحتى في الدين والإيمان: «أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين؟»[1].. و.. «إنما أنت مذكّر لست عليهم بمسيطر». فحين تعتمد أمريكا الديمقراطية المعكوسة خارج أسوارها فتلتزم رأي (أقلية) إسرائيل وبريطانيا وأسبانيا وتتجاهل (أغلبية) بقية دول العالم فهي إنما تؤيد مصالحها سواء بالحرب أو بدونها.. وبهذا المعنى أرادت أن تستأصل النظام اللاديمقراطي من العراق؟!! إن أمريكا حين تستأثر

(١) سورة يونس آية ٩٩

بالقرارات في العالم أجمع فإنها تكرر ما فعله صدام حسين في بلاده حين استأثر بالحكم. إن وهم الديمقراطية في أمريكا هو الذي جاء بحاكم أمريكي فاز بفارق لا يذكر بأصوات انتخابية ثبت زيفها وتزويرها، وبالكونغرس الذي يحكمه مجموعة صهاينة تتحكم بمصير الشعب الأمريكي قبل غيره من الشعوب وفق ما تتطلبه مصالحها وأهدافها؟!!

في الواقع إن الديمقراطية الغربية تعني حكم الأغلبية مما يعني استبعاد أية أقلية من الحكم.. من القرار.. من المساواة.. وبالتالي من أبسط الحقوق.. والديمقراطية الغربية والتي يراد لها أن تحل محل الشورى في العالم الإسلامي، تعني في الواقع حكم المصالح ـ وليس حكم الأغلبية التي تُزوّر أصواتها وإرادتها ورغباتها ـ إن الديمقراطية الغربية تقوم على أساس مصالح فئة صغيرة تتحكم بالأغلبية التي تحكم باسمها هذه الفئة.. تسيرها.. ترسم لها مستقبلها.. تحدد لها بيانات عيشها ومعيشتها.. ودائماً.. وباستمرار تكون الذراع الخفية لهذه الأقلية الحاكمة.. ذراع موشومة بالنجمة السداسية أو بذاك الشمعدان..

إن العالم ـ بغالبيته ـ يتوقع أن تتمخض نتائج هذه الحروب الشرسة على الدول والشعوب، باسم الديمقراطية والحرية ومحاربة الإرهاب والاستبداد، عن صحوة قوية وواعية للشعب الأمريكي الغافي والمغيب عما يدور حوله.. والذي يجهل إلى حد كبير من يهدد رزقه وحياته وأمنه.. ولن يلبث أن يعي أن الرمال المتحركة تحته ما

هي إلا ألغاما صهيونية الزرع والصنع، وستبتلعه بأعصاب باردة إن هو لم يسارع لإنقاذ نفسه على الأقل.. إن كان حقاً غير معني بإنقاذ غيره..!!

إن الشعب الأمريكي يعرف جيداً أن العنجهية الأمريكية التي زرعتها هذه الفئة في شرايين وخلايا أمريكا مهددة بمفرقعات ناقمة على هذه الفئة و لم يعد لديها الوقت لتفرق بين هذه الفئة وبين من يحميها أو يعيش في كنفها أو يسكت عنها.. والشعوب الناقمة لن تنتظر أن تفصل الأيدي التي امتدت إليها بالقتل عن الجسد الذي لم يشارك في هذا حتى تقطعها.. وقد لا تستطيع الشعوب التي ذاقت الظلم والاستبداد.. وعرفت القتل والتدمير والتشريد أن تنتظر قاتلها حتى يخرج من مخبأه الآمن لترد له الصاع صاعين.. وتبادر إلى دك مخبأه فوق رأسه قبل أن يخرجه كالأفعى.. وبالتالي لن ترحم من أراد أو قبل أو حتى اضطر للتواجد معه في هذا المخبأ.. ولعل الشعب الأمريكي قد أدرك هذا بعد أحداث الحادي عشر من أيلول ٢٠٠١ ورغم جميع محاولات تضليل حكومته له بأن السبب في تلك الأحداث هي (إرهابية) الإسلام والمسلمين، أدرك أن الهدف دائماً وأبداً للنقمة هو استهداف الظالم أياً كان شكله ولونه وأينما كان موقعه.. ولهذا نادى مثقفوه بإعادة النظر في طبيعة العلاقات الأمريكية والغربية مع العالم العربي والإسلامي وإعادة بناء جسور جديدة ليس فيها عقبات وحواجز استفزاز للمسلمين تحديداً.

إن كل ما يدور على الساحة العالمية بشكل عام، وفي العراق

بشكل خاص، يدعو إلى التساؤل الذي يجب أن يكون الأمريكيون أول من يطرحه وهو:

ـــ ماذا تريد الحكومات الأمريكية أن تفعل بالأمريكيين؟!!

إن كل ما فعلته الإدارات الأمريكية السابقة وصولاً إلى ما فعلته إدارة جورج دبليو بوش بأمريكا وبالشعب الأمريكي اليوم: هو الكذب عليهم.. وتعريض أمنهم للتهديد.. وإكراه العالم على الحقد عليهم.. ودفع الشعوب المظلومة للنقمة منهم.. فينقلب السحر على الساحر، ويكون الانتقام الذي يمارسه المظلوم على الظالم، وإن كانت الضربة تصيب مظلوماً آخر هو الشعب الأمريكي فهو،أي الشعب الأمريكي، مخدوع بحكومته التي تحاول أن تشغله عن سياساتها الظالمة بديمقراطية وهمية ليظن معها أنه ينال من الحقوق ويحقق من المكاسب ما لا يحققه مواطن آخر في العالم وهذا ما يجعله يتعامل مع الآخرين بفوقية وعنجهية «مصدقاً ما بين يدي حكومته من أكاذيب» حول تميزه عن شعوب العالم أجمع، وهذا وحده ظلم كبير أوقعته فيه حكومات يقوم تعاملها وتبني سياستها وتتحدث أدبياتها بلغة آمرة.. ناهية، لا تفسير ولا تأويل لمفرداتها سوى معنى واحداً هو المصلحة.. والمصلحة فقط.

من جهة أخرى فإن الظلم الذي توقعه الحكومة الأمريكية على الشعب الأمريكي هو ما توقعه من الظلم على الشعوب الأخرى التي تدمغها بكل الوسائل وتحت الكثير من الادعاءات، والتهم متوفرة

باستمرار عندها للجميع الذين تدفعهم للانتقام كرد فعلٍ انتقامي من كل ما هو أمريكي أينما كان موقعه داخل أو خارج أسوار الولايات المتحدة، وقد تجلى ذلك في عمليات كثيرة حيث تم الاعتداء على المصالح الأمريكية في مختلف مناطق العالم من سفارات (في نيروبي وغيرها) إلى المدمرة (ليبرتي) إلى محاربة الشركات الاقتصادية الأمريكية وتلك الغذائية في أكثر من مكان في الدول العربية والغربية..

إن الشعور بالقلق على المستقبل والشعور المستمر بالظلم سيؤديان حتماً إلى ردات فعلٍ غير محمودة العواقب ولعل في توحيد مواقف المرجعيات الدينية الكبرى تكمن بذور حل قد تفشل فيه الكثير من المرجعيات السياسية الكبرى.. ومن هنا يبرز دور الأصولية الدينية بمعناها الحقيقي.. حيث جميع الأديان يجب أن تعود إلى أصولها وتبتعد عن كل ما شابها وما موقف قداسة البابا من الحرب الأمريكية على العراق حين قال: «إن الغرب أصبح عبداً لملذات الحياة المختلفة بأبخس الأثمان وللعربدة الجنسية والمرئية وللعنف.. وأمريكا التي تتحدى العالم ظلماً وبهتاناً هي أمريكا التي تتغذى من جثث ساحات المعارك. إنها الشيطان وإمبراطورية الظلمات الممتدة في كافة أنحاء العالم وهي التي تقود الحرب العالمية الثالثة ضد الجنس البشري» سوى بوادر دعوة دينية ضمنية لتقريب المواقف بين المسلمين والمسيحيين، وبالتحديد مسيحي الغرب وهم المعول عليهم كثيراً بعد الحملة الشعواء التي تتعرض لها المسيحية الغربية من قبل المسيحية الصهيونية

لسلخها عن أصولها في محاولة لعزلها عن التاريخ المشترك مع الإسلام لتضعف القوة الناتجة عن توحد مواقف الطرفين الإسلامي والمسيحي لأنها (أي الصهيونية) تدرك تماماً أن في توحدهما.. نهايتها.. ونهاية أيدلوجيتها.. وفشلها في صهينة العالم أو عولمة الصهيونية. ولهذا يجب وضع حدٍ فوري وحاسم لأكذوبة الحوار الإسلامي المسيحي الذي أراد به الغرب المتصهين إشغال الطرفين عن حقيقتهما وتاريخهما وإدراكهما للمؤامرة المحاكة ضدهما وما يدور اليوم في العراق سوى (طبخة) مسمومة من إعداد صهاينة متنفذين في الإدارة الأمريكية ضمن برنامجهم الدائم (طبق العام) وقدم هذه الحلقة ريتشارد بيرل رئيس المجلس الاستشاري (في وزارة الدفاع) وبول وولفوتيز (نائب وزير الدفاع) وهل يجهل أحد أنهما يهوديان صهيونيان؟!! كما لا يجهل أي مراقب معنى ما قاله شمويل غوردون الخبير الاستراتيجي في شؤون مكافحة الإرهاب في الجامعة العبرية أن:

«علينا أن نتمنى أن تبقى الولايات المتحدة متورطة لأطول مدة ممكنة في إقامة نظام جديد، واقتصاد مستقر، فهذه المرحلة ستمنع الولايات المتحدة من فرض سيطرتها على الصراع الإسرائيلي الفلسطيني وعندما تنتهي هذه المرحلة ستضطر إلى تركيز جهودها على كوريا الشمالية..»

فهل يقبل أي أمريكي حقيقي أن تعيش بلاده هذا الاستقرار الكاذب؟ هذا الأمان الملغوم بهؤلاء الصهاينة؟.. هذا النظام الجديد الذي يدمرون باسمه أمريكا وشعب أمريكا واستقرار أمريكا؟ هؤلاء

مجرد حفنة من مستشاري بوش في سياساته الداخلية والخارجية.. فهل عندهم ينتهي طموح «الأمريكي» بحياة هادئة مستقرة هل عندهم يجد «الأمريكي» أمنه وأمانه؟..

إن جيمس كلورفيلد، محرر صفحات الرأي في «نيوزداي» يدرك جيداً ما يقول حين يكتب:

«إن بوش مرتبط تماماً بما يمليه عليه مستشاروه»

ولن نعود لنسأل من يرسم للرئيس الأمريكي تصوراته وآرائه و.. سياسته؟!! لكننا سنعود لنذكر بقول ستيفن شبيغل: «ليس هناك من يرشح نفسه للرئاسة الأمريكية دون أن يلتق أولاً بالزعماء اليهود لمناقشة القضايا السياسية، وبخاصة موقفهم إزاء إسرائيل» ومع أن العلاقات الأمريكية ـ الإسرائيلية تتعرض أحياناً لعمليتي مد وجزر إلا أنهما لا تلبثان أن تعودا إلى مصالحهما المشتركة التي توجب عليهما التعاون والتعاضد.. ولا يفوت المراقب أن أي تدخل عسكري أمريكي في المنطقة إلا وكان لإسرائيل حصة فيه أو.. منه..هذا إن لم تكن صاحبة الأمر فيه، رغم اكتشاف الإدارة الأمريكية تورطها في الكثير من المواقف المؤيدة لإسرائيل والتي تكلفها باهظاً على مختلف المستويات. إذن.. ألا يحق للشعب الأمريكي أن يتساءل أولاً.. إلى متى سيكون ضحية تسرّع حكوماته وانسياقها وراح مصالح الآخرين؟ وأن يحاسب هذه الحكومات على ما يدفعه من أثمان نتيجة سياستها المتقلبة وغير المدروسة على المدى الطويل.

إن الإدارة الأمريكية لا شك تفكر بالمصالح الأمريكية في العالم.. وفي موقعها ومكانتها من هذا العالم، وتحرص كل الحرص على المحافظة على هذه المكانة الفريدة.. لكنها وإلى الآن ما زالت تهرول لتنفيذ الأوامر الإسرائيلية من جهة، ووراء الانتصار السريع ولو كان مؤقتاً، من جهة أخرى غير عابئة بما يؤول ذلك بها في نهاية المطاف.. ويبدو أنها لن تتعلم الدرس من أخطائها.. ولن تحيد عن سياستها العنجهية المتقلبة وإن كان ذلك على حساب شعبها ومصالحها على المدى البعيد..

وإذا كانت الولايات المتحدة الأمريكية قد حققت الكثير من أهدافها عبر سياساتها الخارجية المتهورة والمتقلبة كالسيطرة على منطقة الخليج، وقدرتها على وضع الجميع تحت خيمتها في حربها على «الإرهاب»، حتى أولئك الذين يدعون عدم الانصياع لأوامرها فإنما هم يفعلون ذلك تكتيكياً لا استراتيجياً، لأنهم أذكى من أن يقفوا في وجه أمريكا، ليس من ناحية عدم توازن القوى فقط بل ومن الناحية المصلحية أيضاً.. إلا أنها فشلت في صناعة رأي عام حقيقي غير مضلّل مؤيد لها ولسياستها. في الوقت الذي نجحت فيه التجمعات اليهودية في العالم في تشكيل رأي عام مؤيد لها وخاصة في أمريكا وذلك بأساليبها الذكية وحنكتها المعروفة في السيطرة على العقول، وأيضاً عن طريق المال. فقد أقامت العديد من المشاريع التي تصب في خانة الخدمات الاجتماعية والبيئية وغيرها من القضايا الخاصة بالحقوق المدنية وحقوق المرأة مستغلة جهل وعدم اهتمام المواطن

الأمريكي بأمور السياسة الخارجية لحكوماته وبالتالي للأفراد الضاغطة والمتنفذة والمتغلغلة في أقسام الحكومات الأمريكية. وعن طريق الخداع سيطرت اللوبيات الصهيونية على العقول واستأثرت وحدها بالتأييد حتى من قبل الأفراد الذين يعرفون أصول ونوايا هؤلاء اليهود.. وليس تأييد هؤلاء لأولئك إلا لانعدام المنافس الحقيقي لها سواء من الأمريكيين أو من المتأمركين الذين لم يعرفوا كيف ينتهزوا فرصة وجودهم في أمريكا وحملهم الجنسية الأمريكية، رغم تمكنهم من ذلك إن أرادوا وتحركوا في هذا الاتجاه، إلا أنهم لم يعملوا لأعلى منافسة الخدمات اليهودية من ناحية، ولا في التقليل من أهميتها وتبيان غاياتها من ناحية ثانية.

لقد استطاع اليهود أن يكتسبوا التأييد الظاهري المصلحي من الناس حيث يتواجدون بأسلوب فشلت الحكومات الأمريكية المتعاقبة في اتباعه مع «الآخر» خارج أسوارها، وذلك بسبب عنجهيتها التي تأبى عليها إلا أن تتعامل من منطلق «صاحبة العرش» أو «القوة العظمى والوحيدة» من جهة ــ ومن جهة أخرى فقد أصبحت أساليبها في خداع العالم مكشوفة، وهي حين تحمل شعارات مختلفة لتبرير سطوتها على العالم فهي إنما تفعل ذلك فقط لتمنح حروبها واعتداءاتها الشرعية المبررة لها، مع أنها لا تتراجع عن نواياها حين تفشل في الحصول على الشرعية المطلوبة ولنا في ذلك أمثلة كثيرة.. مما يدعو العرب والمسلمين في أمريكا لإعادة النظر في حركتهم البطيئة في هذا الاتجاه.. بحيث يسرّعون وتيرة تحركهم بما يتناسب مع

سرعة غيرهم من اللوبيات الفاعلة في معامل صناعة القرار الأمريكي معتمدين بذلك على أفراد لا يستهان بهم في رغبتهم بالاستماع والمناصرة والتأييد، وليس وجود أعضاء في مجلس النواب ومجلس الشيوخ مستعدين للمعارضة أو حتى للاستقالة احتجاجاً على السياسة الأمريكية في طريقة تعاطيها مع القضايا الداخلية والخارجية سوى مؤشر على وجود بوابات يمكن للعرب والمسلمين طرقها والتحرك داخلها. هذا إذا ما استطاعوا الحصول على مفتاح «الصندوق الأسود» للمجلسَيْن ومعرفة أعضاء هذين المجلسين، إذ لكل عضو تفكيره وأهدافه وبالتالي دوره الفاعل هناك المنسجم مع ولاءاته وقناعاته. ولا يخفى على أحد كيف أن إقحام جملة بل كلمة معينة أثناء صياغة «القرار» يمكن له أن يغير دفة هذا القرار وبالتالي تأثيره وفعاليته، وهنا تتجلى قوة، وضعف، فعالية اللوبي ـ أي لوبي ـ في أمريكا.

إن من شأن القصور في فهم السياسة الأمريكية وآلية تفكيرها وتكتيكها واستراتيجيتها أن يضيع الفرص الكثيرة والجهود المبذولة ـ على قلتها ـ بالنسبة للعرب والمسلمين، وللأمريكيين على السواء، وهذا ما يؤكد ضرورة فهم هذه الآلية واستيعابها جيداً. وليس عيباً أن تأسو جهةٌ معنية جهةً أخرى ترى في سياستها الصواب أو على الأقل الحل للكثير من المشاكل والأزمات.. بل العيب أن لا يتّعظ من يخطئ أو يفشل، من أخطاء وفشل الآخرين مع أن أسباب سقوط هؤلاء واضحة لهم كالشمس وأسباب ارتفاع ووصول غيرهم كذلك

واضحة كالشمس.. ولذلك فإن متابعة تحركات الغير و«الآخرين» يمكن لها.. بل لا بد لها أن تلعب دوراً هاماً وأساسياً في تجنب الأخطاء ونتائجها وفي درء الأخطار وأهوالها.. وربما أكثر أهمية من ذلك.. وهذا هو الحبل الذي عرف اليهود كيف يلعبون عليه..

ولو أدرك الأمريكيون ما كلفهم اليهود داخل وخارج أمريكا لأدركوا على الفور العبء الثقيل الذي يحملونه على أكتافهم والذي أثقل كاهلهم قبل أن يعرفوا ماهيته.. إن اليهود في أمريكا ورغم مشاريعهم التنموية في ظاهرة إلا أنهم يسرقون أمْن الأمريكيين بالابتزاز والخداع والعمليات المشبوهة وعلى كافة الصعد.. يقودونهم إلى الحرب تلو الحرب والتي لا يشارك الشبان اليهود فيها حتى وهم يحملون الجنسية الأمريكية منذ ولادتهم. إن دورهم في هذه الحروب يقتصر على إشعال فتيلها أولاً وجمع غنائمها أخيراً.. ويتركون تكاليفه المادية والبشرية لتكون حملاً على الأمريكيين هذا إن لم يطالبوا بتعويضات مختلفة باسم (ضبط النفس وتحمل الخسائر و.. و..). ويتم الأمر بطريقة معروفة.. إذ كلما تعرضت إسرائيل لأذى خفيف، رداً على أذاها الشديد للآخرين، فهي تطلب تعويضاً.. وكلما سكتت عن الرد تطلب مساعدة، وكلما عارضتها أمريكا في قرار تطلب أتاوة وهكذا، حتى احتلت إسرائيل المركز الأول بلا منازع في لائحة المساعدات الأمريكية، ولأمريكا بالطبع مصلحة في ذلك.. ولكن ليس للأمريكيين. فالذين يقبضون المال من إسرائيل كثمن مراكزهم وقراراتهم ومعلوماتهم.. غير أولئك الأمريكيين الذي

يدفعون التعويضات ويقدمون المساعدات لها بمناسبة وبدون مناسبة، حتى أن القانون الأمريكي يعفي «الأمريكيين» الذين يرسلون مساعدات مادية أو عينية لإسرائيل من الضرائب الفادحة المفروضة عليهم وهذا ما يفعله اليهود والأمريكيون المتهودين. إذ يحولون ما يفيض عن حاجتهم إلى إسرائيل ويرتاحون من عبء الضرائب والتي بواسطتها تبقى أمريكا في رغد العيش، وبذلك يحرمون أمريكا من ضريبة وجودهم فيها وهم المستفيدون من ذلك من جهة.. ومن جهة أخرى يقومون «بواجبهم» تجاه إسرائيل..

وما يدعو للاستغراب أكثر أن العرب والمسلمين لا يفعلون الشيء ذاته مع الفلسطينيين.. فلا يقدمون لهم تعويضات أو تبرعات أو أي نوع من العطيات لسبب أو لآخر، مع أنهم لا يلقون من الأمريكيين التعاطف ذاته الذي يلقاه اليهود هناك مع قضاياهم وتعاطيهم مع الحياة في أمريكا بكل أشكالها، فيعيشون آمالهم وقلقهم وسلامتهم وخوفهم، ومن ناحية أخرى لا يلقون منهم — من الأمريكيين — سوى التجاهل واللامبالاة إن لم تكن مشاعر سلبية أخرى.. متناسين القدرات العربية والإسلامية العقلية والفكرية والعلمية الفذة التي تفرّغ طاقاتها في أمريكا ولمصلحة الأمريكيين وفي خدمتهم.

لقد كانت أمريكا رغم كل عنجهيتها تراهن على سمعتها (المزيفة) بأنها نصيرة المظلومين.. ووصية على عدالة الإنسانية، لذلك تراها تتدخل في كل شبر في الأرض لتنهي صراع.. وتوقف نزاع..

وتمنع ضياع — وهي وإن كانت دائماً تفعل ذلك بالقوة والحيلة والمصلحة، فإنها إنما كانت تفعل ذلك لِتُحْكِمَ سيطرتها على العالم ونزاعاته الدموية (التي كانت تبذر بذورها بطريقة أو بأخرى) ومن لم يكن يتابع أذرع أخطبوطها المسمومة كان دائما يظن أن الحل جاء على يدها.. وعلى هذا كانت تراهن.. بأنها الدولة العظمى الوحيدة في التاريخ (والجغرافيا) التي لم تحتل بلداً و لم تشرد شعباً إلا أن بوش الابن بجهوده المتواضعة ورؤيته العمياء ومستشاريه الخبثاء وأعوانه العملاء نزع عنها هذا الثوب الفضفاض وجردها مما كانت تستر به عورتها وعوار سياستها، وهذا ما يؤكده جيمس كلورفيلد بقوله:

«لا يهم حجم إصرار الولايات المتحدة على أنها ليست قوة كولونيالية، ولا يهم الحديث عن دوافعنا السليمة إذا ما نظر إلينا العراقيون كقوة كولونيالية... إن الشعوب تنظر إلى التاريخ عبر موشورات مختلفة».

لقد طمح العرب والمسلمون في الولايات المتحدة أن يكون بوش (الابن) أفضل من آل غور ونائبه اليهودي ليبرمان، على الأقل في سبيل مصلحة أميركا والشعب الأمريكي فانتخبوه.. وإذا به ينشغل بسياسة خارجية مدمرة لأمن وسلامة أمريكا وشعب أمريكا.. على عكس ما كان عليه سلفه الرئيس كلينتون الذي جعل خبيراً في منطقة الشرق الأوسط في إدارته، وهو كينيث بولاك، يحدد بصراحة مصالح الولايات المتحدة في الخليج على أساس أنها ترى «السبب في امتلاكها لمصلحة شرعية وحساسة في رؤيتها لنفط الخليج متدفقاً بغزارة

وسهولة وبأسعار رخيصة نسبياً، هو ببساطة أن الاقتصاد العالمي أقيم في الخمسين سنة الماضية على أسس النفط الوفي غير المرتفع الثمن، وإذا أُزيل ذلك الأساس فإن الاقتصاد العالمي سينهار».[1]

لقد بذل الرئيس كلينتون قصارى جهده وخلال دورتين رئاسيتين للتقدم ببلاده اقتصادياً، ورغم المآخذ على الكثير من عيوب فترته تلك، إلا أن الحقيقة تقول أنه كان اكثر وطنية وأمريكية من خلفه الرئيس بوش، وحين اضطر للكذب عليهم ـــ وهذا ليس تبريراً لفعلته ـــ فإنه قد فعل ذلك في مسألة تضره شخصياً ولا تضر شعبه في أمنه واستقراره ومستقبله، وقد أدرك الشعب الأمريكي ذلك فغفر له، بل ومنحه ثقته مرة ثانية حين رأى دموع الندم والأسف في عينيه، ولكن بعد محاكمته، فهل سيحاكم الشعب الأمريكي رئيسه بوش الابن بتهمة الكذب المتواصل وقد ثبتت عليه؟ وبتهمة التضليل المستمر قبل أن يستمر به دورة رئاسية ثانية؟

لقد تجلت عظمة الآباء الأوائل المؤسسين لأمريكا العظمى في أنهم أحبوا أميركا وعملوا من أجلها ما بوسعهم وكان أول ذلك أنهم اكتشفوا وكشفوا دور اليهود الصهاينة الخسيس في بلادهم.. ولهذا خلّدَ اسمهم.. واليوم ما الذي يخَلّد جورج بوش الابن؟ حمايته لليهود؟ تسليمهم زمام أمور بلاده؟ تنصيبهم على القرار الأميركي في جميع دهاليزه المعتمة؟!!

(١) جيمس كلورفيلد ـــ جريدة الشرق الأوسط ٢٠٠٣/٧/٢٣

ويدرك بعض الأمريكيين (النخبة) إلى أين تُجَر بلادهم ويحتجون ويكتبون ويطلبون من رئيسهم ألا يستمر في الانقياد وراء هؤلاء الثلة المغرضة حوله مثل رامسفيلد وديك تشيني لكنهم يأتون بحركة عملية إزاء ذلك. فالأمريكي أيضاً يحمل على كاهله عبء تخليص بلاده من هذه الثلة وله في ذلك كل الحق وعليه كل الواجب، فهو بذلك إنما يدافع عن بلاده ويدفع عنها الشرَّ الذي استشرى بها.. ويعلم أن عليه أن يقوم بذلك فوراً ليقلل ما استطاع من تبعات سكوته سابقاً.. وأن يتخذ خطوات عملية وواقعية بعيداً عن التنظير والتذمر أو مجرد التظاهر مقابل ما يقوم به «اليمين المتطرف المسيّر بمقود صهيوني يقود أمريكا إلى الهاوية؟ وعلى جميع الجبهات السياسية والاقتصادية والفكرية والدينية.

الواقع يتطلب تحركاً سريعاً وفعّالاً من نخبة الشعب الأمريكي المغيب طوعاً وقسراً عن كل ما يدور حوله داخل وخارج أسوار الولايات المتحدة؟! لأنه مسكون بعنجهية أمريكية خادعة، وواهمة زرعتها فيه سياسة مدروسة ومخطط لها مفادها أن يبقى (الأمريكي) معتزاً بنفسه.. فخوراً بكونه أمريكي.. مأخوذاً بإعلامه وحكومته وممثليه.. لا يرى ولا يسمع إلا أمريكا وصوت أمريكا.. ليسير كالطاووس بين من هم غير أمريكيين يسخر من دهشة العالم حولهم بأمريكيته، وهي نظرة لا تختلف كثيراً عن الرؤية الصهيونية — الإسرائيلية عن كون اليهود شعب الله المختار وعن نظرته لبقية الشعوب وهي إحدى نقاط الالتقاء بين الرؤيتين الأمريكية والإسرائيلية.

ولن يلبث الأمريكي المغيب أن يستمع إلى صوت النخبة الواعية لديه وهي تنذره بما هو آت على يد رئيسه وأعوانه ومستشاريه، ويفكر بنتائج الحروب وخسائرها.. بل وفيما ستجره هذه الحروب عليه من نقمة عالمية ستدفعه إلى الشعور بالخجل من أمريكيته.. وبالخوف من أن يعيش في أمريكا؟ والأهم من ذلك إلى التخلي عن قناعته الأمريكية أن النصر العسكري، الذي هزمته الإرادة الشعبية والحَجَرُ ليس هو النصر دائماً.. ليس هو الخلود.. ليس هو العظمة.. التي تحرص عليها أمريكا دون أن تعرف كيف تحافظ عليها.. بل إنها قد خرجت عن السِّكة بعد أن كانت واضحة المعالم وكثيراً ما بيّنها محبو أمريكا ومصلحوها لسياسييها.. دون جدوى.

إن الخارطة المطروحة اليوم أمام الأمريكيين تمثل جغرافيا لا تعرف حدوداً ولا معالم ولا آفاق.. خارطة ليس فيها سوى أمريكا ــ أمريكا وحدها.. بعد أن سورت نفسها ــ بيدها ــ وبنصيحة صهاينتها الذين أرادوا لها مشاركتهم مصيرهم ذاته ليضمنوا موقفها معهم فسوروها بسور من النقمة والكراهية والحقد والازدراء.. في الواقع لن تعيش أمريكا طويلاً.. لأنها قطعت كل شرايين وجودها عن العالم، وما المرحلة التي تعيشها الآن سوى إرهاصات نهايتها، فلماذا يقبل (الأمريكي) هذا السقوط المريع لإمبراطوريته وهل يعي مصيره قبل فوات الأوان؟!!

في الواقع، وكما أسلفنا، لا نستطيع القول أن أحداً من الأمريكيين لم يتوقف عند عوار سياسة حكومته، حتى وإن كان فقط

من باب إبداء الاختلاف في الرؤية والاجتهاد، أو أنه لم يبال بالخطر الذي يهدد أمريكا وشعبها، فلقد نبّه الكثير من مفكري والقليل من مسؤولي أمريكا إلى أن أمريكا ستكون الخشبة الواسعة والمستهدفة لعمليات انتقام واسعة النطاق مؤكدين أن مصالحهم حتى خارج الولايات المتحدة معرضة للخطر بشكل كبير ولانهائي.. وأكدوا على ضرورة الإسراع باتخاذ ما يلزم لوقف هذا الزحف القادم لا محال، لافتين الانتباه إلى أن تطمينات حكومتهم وسياستهم بأن الأمريكي لن يصاب، وأنه عصي على أي اختراق، لم تعد تجدي.. ولم تعد تترك آثارها النفسية على الأميركيين العاقلين الواعين.. وهم المعوّل عليهم الآن بإيصال هذا الإحساس إلى بقية الشعب الأمريكي بعيداً عن تفسيرات الحكومة المضللة تارة وتحذيراته تارة أخرى، وتأتي هذه الأخيرة في سياق تبرير سياسة أمريكا الهجومية لا الدفاعية مستخدمة خلفيات وأرضيات مختلفة ومتنوعة لا تقف عند حد، أقلها أن العالم ينقم على أمريكا بسبب موقعها القيادي وتفرده، بعد أن كان بعض مفكريها يوهمونها أن عداء الآخر لها منبعه تفوقها وحضرتها ومدنيتها التي تجاوزت هذا (الآخر) بمراحل زمنية طويلة، الأمر الذي يجعلها مستهدفة دائماً!!.. دون أن يعترف أي من مسؤوليها أن سياستها الاعتدائية هي منطلق كل الأحقاد والنقمات والانتقامات ليؤكدوا أن الخيار الوحيد لديهم هو (مكافحة الإرهاب) وعلى طريقتهم..

أي إرهاب..؟ هم يحددون مواصفاته وتاريخه وجغرافيته..

أي طريقه..؟!! لكل إرهاب طريقته وأصحابه الذين بردة فعلهم

وطريقة تجاوبهم مع الأوامر الأمريكية يحددون متى وكيف يفتح ملفهم أو يؤجل.. دون أن يغلق للأبد.. فالجميع.. الجميع دون استثناء مطلوبون على القوائم الأمريكية ذات السياسة الصهيونية الدائمة الحضور بصفتها الشريك الدائم في عملية اختيار الدول والجماعات المطلوب وضعها على القائمة السوداء وخاصة تلك التي تحتمل ظروفها ومواصفاتها تهمة الإرهاب وليس هناك أكثر من الدول العربية والإسلامية من يتمتع (حسب شروطهم) بهذه المواصفات رغم أنهم رفضوا دعوة سوريا الواضحة بتحديد مفهوم الإرهاب ليتم بناء عليه تحديد مواصفات الإرهابيين واكتفوا من مؤتمر (شرم الشيخ) بوضع شروطهم الخاصة. والأدهى من ذلك أن هناك قائمة افتراضية ملحقة بقائمة الإرهاب السوداء تحمل أسماء حقيقية بتهم افتراضية ـــ احتمالية ـــ بعد ذلك جاءت أحداث /١١/ أيلول لتدمغ هذه الشروط والمواصفات بعبارة واحدة (مقدسة) (إما معنا أو ضدنا) لا حل وسط.. ولا خيار ثالث..مع أن هذه العبارة ليست بجديدة، بل هي من صميم الدستور الأمريكي ومن ثوابت السياسة الأمريكية إلا أنها الآن أخذت منحى عملياً أكثر من ذي قبل تم ترجمته على شكل حروب مباشرة.

وفرضت الشروط على الجميع بشكل عام وعلى الدول العربية والإسلامية بشكل خاص، باعتبارها المسؤولة عن أمن إسرائيل التي بيدها مشروع السلام.. إلا أن أحداث العقد الأخير ـــ التي جرت ـــ في المنطقة، وفي فلسطين المحتلة بشكل خاص، أظهرت إلى أي

مدى تفتقد إسرائيل للأمن وقد كتب وقيل الكثير في ذلك.. وشاهده العالم بأسره على الفضائيات، ورغم جميع محاولات الحكومات الإسرائيلية، بإرهابها وعنفها وتدميرها البُنى التحتية، لخنق الانتفاضة على بساطة سلاحها وإيقاف العمليات الاستشهادية.. لم تستطع، أن تثبط عزيمة الشعب الفلسطيني الذي صارت روحه أرخص ما يقدم لأرضه وعقيدته وهو السلاح الذي لم تستطع تكنولوجيا إسرائيل ولا سياستها العنيفة أن تغلبه رغم سعيها وجهودها في سبيل ذلك.. لقد أدرك الإسرائيليون واليهود كما الصهاينة أنهم إنما جاءوا إلى أرض الموت.. لا إلى أرض الميعاد.. وكان وعد بلفور لهم (بأرض الموت) لا بأرض (العسل واللبن) وهم وحدهم الآن يعيشون هذا الإحساس.. ولأن حكوماتهم التي فشلت في مسعاها بتحقيق الأمن، كان دائماً مسعاها نحو مصالحها في كل مكان في العالم وخاصة تلك الأماكن التي تضم مصالح حيوية ولهم فيها أرضية خصبة.. تقوى فيها أذرعتهم وكلمتهم. وليس أفضل من الساحة الأمريكية يلعبون فيها لعبته القذرة.. ويديرون دفة العالم بالاتجاه الذي يناسبهم غير عابئين حتى بمصلحة وأمن الشعب الأمريكي، بعدما فرطوا بمصلحة وأمن الشعب الإسرائيلي نفسه؟!!

ولأن أوجه الشبه بين أمريكا وإسرائيل كثيرة،ولا تنحصر فقط في قدرتهما الهائلة على الكذب وتشويه الحقائق، فقد استطاعت إسرائيل أن تجد في طموح الحكومات الأمريكية لزعامة العالم تربة خصبة لمآربها، فغذتها على كل الاتجاهات وتحول المشروع الإسرائيلي

في استعداء العالم العربي إلى مشروع عالمي يسير، بل سار، في استعداء العالم كله، فما أرادته إسرائيل من العالم العربي أرادته وتريده أمريكا من العالم.. إسرائيل تريد إخضاع العرب لشروطها ولزعامتها، وكذلك أمريكا تريد إخضاع العالم لأمرها ولعرشها.. تلاقت المصالح فتلاقت الأهداف ومثلها الغايات والوسائل.. وبالتالي ستتلاقى النتائج.. وما تعيشه إسرائيل الآن من حالة اللا أمن المطلقة، تعيشه أمريكا اليوم، وسيزداد إحساسها بالقلق والخوف كل يوم مع ازدياد مشاريعها العالمية الرامية إلى عولمة الثقافة والاقتصاد والتي ترمي من ورائها إلى تنشيط عمل شركات تصنيع الأسلحة وبالتالي إجراء صفقات لا حصر لها معها.. وتوزيع الرعب في العالم وهذا بدوره له ثمن يدفع من الميزانية الهائلة التي تخصص لوزارة الدفاع تحت اسم محاربة الإرهاب الذي تحافظ به على أمن المواطن الأمريكي.. وبملاحظة دقيقة يستطيع المتابع للأحداث أن يتيقن أن جميع المخططات الإسرائيلية صارت فيما بعد مقررات أمريكية تستهدف جميعها الإسلام والمسلمين في العالم العربي وخارجه وذلك بذريعة محاربة الإرهاب الذي تحملهم رايته دون وجه حق. فمن السعي في أوسلو لإخماد الانتفاضة الأولى الذي واصلوه في مؤتمر شرم الشيخ حين تقدمت مقرراته حول مكافحة الإرهاب على مشروع السلام العربي الإسرائيلي ووضعت على قائمته جميع الدول المعارضة للسياسة الإسرائيلية الأمريكية ولمصالحهما أو حتى الدول المستضيفة لأفراد غير مرضي عنهم من قبلها (من أمريكا) بدعوى أن هؤلاء الأفراد ينتمون

إلى منظمات يسمونها (إرهابية) لأنها تطالب بحقوقها وحريتها.. وجاءت ـــ كما أسلفنا ـــ أحداث ١١ أيلول ٢٠٠١ لتتابع المسيرة الطويلة في تضييق الخناق على الإسلام والعرب.. لكن ما يجب أن يعرفه ويدركه (الأمريكي) جيداً أن العرب والمسلمين ليسوا وحدهم ضحايا المقررات الأمريكية التي وضعت مسوداتها الحكومات الإسرائيلية، وأن الأمريكيين أنفسهم سيكونون أيضاً ضحايا هذه المقررات التي سيدفعون ثمنها غالياً من أمنهم ومصالحهم وأرواحهم.. فكيف ستكون مشاركتهم في حل أزمتهم؟ وكم من الأفراد ستشتري أمريكا لكي يؤيدوها أو حتى لا يعترضون على سياستها كما فعلت مع دول العالم في حربها الأخيرة على العراق.. اشترت من اشترت بمختلف الأثمان.. وهددت من هددت بمختلف الأسلحة.. ونحّت جانباً من أرادت.. ودخلت الحرب رغم اعتراض الشرعية الدولية وبعض الدول التي كانت حريصة على منافسة أمريكا في فرض رأيها وبالتالي سياستها على العالم أيضاً.. ولم تستطع هذه الدول أن تقف طويلاً حجر عثرة في وجه الشراسة الأمريكية لأن معارضتها القوية والشديدة لهذه الحرب إلا أنها لم تبلغ مبلغاً تتهدد فيه مصالحها، وتشكل فرنسا نموذجاً لهذا الاتجاه كما أسلفنا رغم أنها تحاول أن تقفز إلى الضفة الأخرى حيث يتوقع تشكيل حلفا (روسي ـــ ألماني ـــ فرنسي) وذلك دون الوقوع في مستنقع الغضب الأمريكي، غلا أنها ما زالت في طور الاستعداد والتأهب فقط، ولم تتأخر كثيراً الدول الأخرى المعارضة، عن الركب حيث لم تفكر

بتشكيل قطب آخر يواجه القطب الأوحد، ومع ذلك فإن ما نريد قوله أن أمريكا.. أو المشروع الأمريكي الإسرائيلي لن ينجح نجاحاً كاملاً ودائماً.. فالخسائر موجودة على أرض الواقع وليست مجرد احتمالات.. والأمر مؤقت طال أم قصر، إذاً لماذا يدفع الأمريكيون فاتورة أخطاء حكوماتهم المتكررة والمتهورة باسم أشياء وأشياء لم تعد تقنع لا صغيراً ولا ضعيفاً ولا جاهلاً فكيف بضحية؟!!

وإذن؟ هل يدخل الشعب الأمريكي كغيره من الشعوب التي لم تحسب لها أمريكا حساباً بعد، دائرة المعركة، ويفعّل دوره ليسترد هيبته التي ضيعها حين أساء استعمالها وفهمها؟!! لعل أهم ما يجب أن يدركه الأمريكيون جيداً وسريعاً أن الزمن لا يتوقف، بل أكثر من ذلك سيكون من الصعب اللحاق به.. وأن القادم مهول.. إن لم يبادروا بالتحرك مع الآخرين الذين، وإن فشلوا، قد نالوا شرف المحاولة، وربما بعدها نعمة الإعفاء من دفع الفاتورة.. وتجنب طوفان الحقد القادم إليهم مبحراً، طائراً أو سائراً..

وقد لا تتاح لهم فرصة ثانية للتفكير والتدبير، فليسارعوا للاستماع لصرخات الآخرين.. وليسمعوها جيداً.. وليتمعنوا فيها.. في نبراتها الغاضبة.. في تحذيرها.. في كل ما قد تحمله من آلام النكبات.. وآمال السلام معها..

وقد يهم الأمريكيون أن يعلموا شيئاً.. قد لا تكون صحافتهم أثارت انتباههم إليه.. لكنه حصل على يد جنودهم في العراق:

على نقطة تفتيش.. مرّت سيارة أجرة، هربت فيها عائلة عراقية من أحد عشر فرداً.. تعرضوا للتفتيش حسب (التعليمات) مرّت السيارة وظنت العائلة أنها قد نجت حين لجأت إلى الجنود الأمريكيين لكن هؤلاء وما أن ابتعدت السيارة قليلاً باتجاه نقطة التفتيش الثانية حتى أطلقوا النار على السيارة ومن فيها.. هل تتصورون شعور أمٍّ ترى رأسي طفليها ينفصلان عن جسديهما أمام عينيها..؟!! هل تتخيل أمهاتكم هذا المشهد؟!! لم تعد الأم تعرف أين تنظر.. إلى الرأس المتطاير أم الجسد المتناثر.. لم تستطع أن تتخيل المنظر.. لم تقدر أن تخمّن السبب.. ولا العذر.. فكل شيء واضح.. لهذا جاء الأمريكيون تاركين وراءهم إنجيلهم الذي يدعو للسلام ومسيحيتهم التي تأبى الظلم، جاؤوا ليبثوا الرعب في القلوب.. فتكون قلوب عبرة لأخرى.. ويكون الدرس للجميع.. الأمثلة كثيرة والمشاهد لا تحصى، وكذلك المشاعر الأخرى التي زرعتها رجالات أمريكا المتنفذين في صدور هؤلاء الأبرياء مشاعر لن يسلم منها أحدٌ في المستقبل.. ولن تفيد حينها الأعذار والتبريرات.. لن ينفع حسن النية.. ولا حتى الجهل أو التجاهل فالنقمة لن تميز.. وكما قال الشاعر:

رأيت المنايا خبط عشواءَ مَن تُصب

تمته ومن تخطئ يعمّر فيهرم

والواقع يقول أن لا شيء يدوم.. لا قوة.. لا ضعف.. لا أمن.. لا عنف.. لاشيء.. على الإطلاق يبقى على حاله.

ومهما عظمت الدول والحكومات، ومهما تجبرت.. فإنها لا تستطيع أن تتجاهل أن هناك على الضفة الأخرى أفراد لا يعرفون الخوف.. ولا العظمة على الطريقة الأمريكية.. وأن على كل ضفة أخرى زارتها أمريكا ذات يومٍ وتركت فيها بذار عنفها.. أينعت قامات شامخة وعنيدة.. وليس سكان العالم كلهم سواء، إلا أن الظلم يوحد القامات والغايات. فهل الأمريكيون مستعدون لذلك؟!! بل هل هم مضطرون لتلقي مثل هذه الضربات التي لاشك ستكون، ذات مرة، قاصمة؟..

قد يعتبر البعض هذا تهويلاً... وقد يعتبره آخرون ـــ بحسن نيتهم ـــ تحذيراً.. والحقيقة أن كل تفسير يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار.. وأن يدرس ويحلل ويعاد تركيبه.. ولكن بسرعة.. بأقصى سرعة.. فالزمن لا ينتظر.. وكذلك دماء الضحايا..

إن نار ضحايا الآلة الهمجية الأمريكية لا تبرد عادة ما لم يُطْفِئ جمرها بالثأر من كل من قام بإراقة دمها وشَهِدَه و.. لم يفعل شيئاً، من كل من شارك فيها أو صمت عنها و لم يرعو، من كل من مسّ عقيدتها ورزقها ولقمة عيشها و لم يرتو.. من كل من هدد أمنها وأمانها و لم يرف له جفن..

وإذا لم يُرِدْ الأمريكيون أن يوقفوا حكوماتهم عند هذا الحد.. إذا لم يُرِدْ الأمريكيون أن يشاركوا في حفظ أمنهم ظناً منهم، وتصديقاً لحكوماتهم، أنهم عصيون على التهديد وخارج نظام الوعيد من

(الآخر) فهم مخطئون ويجب أن يدركوا جيداً أنّ كل منظومة تولّد أخرى.. لاشك في ذلك.. فالتوالد لا يتوقف والأطماع أوجبت خلق السلاح.. والسلاح أوجب خلق الحروب.. وهذه أوجبت خلق النزاعات والأخيرة أوجبت خلق الفتن.. وربما الأعذار والمسوغات لكل ما سبق وبالتالي فالكوكب يدور.. وكذلك الظروف والأسباب والنتائج..

وهكذا تتزاوج العوامل السياسية والعوامل الاقتصادية كما هي حالها منذ بداية الحروب في التاريخ.. إلا أنها الآن على أشدها فلأنه أداة التفوق والسيطرة.. إذ أصبح الاقتصاد السبب الأول، إن لم يكن الوحيد للحرب.. ولجميع الحروب مهما تلونت واصطبغت أسبابها ودوافعها وذرائعها.. وكان من ثمار هذا التزاوج السياسي.. الاقتصادي نسلٌ طويل من الحروب لا تعرف حدوداً ولا خطوطاً حمراء، ولا بطاقة تعريف من أي جهة رسمية في العالم.. ومع ذلك لم تكن مجهولة الهوية ولا الانتماء.. وبإمكان أي متفحص لملامح هذا النسل أن يعرف هويته.. وانتماءه وشجرة عائلته... مع ما تحمله فروعها من تسميات متغيرة.. فهي بالأمس كانت.. (النظام العالمي الجديد)، وقبله عرفت باسم (القرية الصغيرة) ثم يدعونها (العولمة) وهكذا تتلون التسميات كالأفاعي حسب تفاوت ألوان بيئتها وضرورة التكيف معها ومن يتمرد أو حتى ينسى تغيير لونه، عن قصدٍ أو عجزٍ أو حسن نية يتلقى نصيبه من العقاب أبسطه الحصار.. أحسنه العزل وأقربه للتنفيذ: الحرب.. وإذا اقتضى الأمر يتلقى المتمرد

درجات العقاب هذه كلها!! ولقد نبهت نخبة الشعب الأمريكي المثقفة والغيورة على بلادها مواطنيه العاديين ممن يرفضون وبكل إصرار ما تقوم به حكوماتهم إزاء شعوب العالم نبهت من تداعيات هذه السياسة.. حول ذلك كتب ديفيد ليفرنغ لويس، وهو كاتب سيرة، يقول:

«في أعقاب ١١ أيلول مباشرة كانت هناك لحظة أتمنى أن تعود. لقد بدا وكأن هناك تكريس افتراضي من جانب الأمريكيين للتقييم الذاتي، وتحسس للظروف التي أنتجت الانتهاك الأعظم. لإحساسنا بأنفسنا منذ (بيرل هاربر) وبالفعل، عندما سأل الناس: «لماذا يكرهوننا؟» تشجع عدد كبير من الأمريكيين على الاعتقاد بأنه قد يكون هناك بحث جدي وحذر وواع للإجابة على هذا السؤال، ومن دون أن نغيب أنظارنا للحظة عن الجور الجلل الذي أصابنا. ألم يكن ذلك، كما ظننا، أمراً إجبارياً سيقع على مواطني الأمة الأقوى على الكوكب كي نفهم سبب ميل الناس في أوروبا والعالم النامي إلى القول ــ بعد الدفق الأولي للتعاطف المستنكر ــ بأنه كانت هناك أسباب حقيقية كي لا نصاب بالدهشة لوقوع مثل هذا الهجوم الرهيب؟»

وقال آرثر شليسنغر: «أظن أننا نمر بعلاقة خطرة جداً مع بقية العالم».

وحتى جورج ويل (اليميني) فقد حذر قائلاً: «يجب أن يعلم

الأميريكيون أن العقيدة الإسلامية أقوى من أية مستجدات دنيوية، فليحذروا انفجارها».

أما المواطن العادي.. المواطن الأمريكي العادي، فقد اختلفت ردّات فعله بين متظاهر.. وإرهابي. ويذكر العالم كيف أنه وقبل ١١ أيلول بسنوات، وقبل أن تخرج الآلاف إلى الشوارع للتظاهر أمام البيت الأبيض والبينتاغون تشجب حروب أمريكا على العالم.. وترفض الذرائع التي تفتعلها الحكومات الأمريكية بحروبها.. وتستنكر ن تقاتل.. بل أن تقتل حكوماتها باسم الشعب الأمريكي ومن أجل النفط و.. المال.. قبل هذا كله، عبّر مواطن أمريكي عن شجبه لكل ما يحدث بطريقة عنيفة لم يجد سواها ليستنكر سياسة بلاده، بتفجير مبنى (أوكلاهوما) احتجاجاً على عنف السياسة الأمريكية ضد البشرية ونذكر حينها كيف اتهمت المنظمات الإسلامية بالقيام بتلك التفجيرات..

لقد أصبحت البيئة السائرة نحو عالمٍ خالٍ من جميع أنواع النواميس الكونية التي تحافظ على سلامة وأمن البشرية، خالية حتى من القيم والأخلاق القائمة على المحبة والتسامح وهي جوهر المسيحية التي شُوهت في أمريكا بدعوات الصهيونية لعالمٍ خالٍ من المبادئ والقيم والأخلاق وهدف هؤلاء من ذلك كله الخروج بالعالم من زاوية الثوابت الدينية التي باتت الوحيدة بعد فشل المشاريع الأيديولوجية الأخرى المبنية على السياسة والاقتصاد والمال حيث بات التنافس بين القوى المختلفة في العالم حول هذه المشاريع قائماً وبشدة لم تعد تنفع إزاءها سوى المشاريع العقائدية، والإيمان بقضايا

متميزة وشديدة الخصوصية وهذا ما أرادت المشاريع الصهيونية التغلب عليه بنشر تعاليم أبعد ما تكون عن القيم والأخلاق والدين وبعيداً حتى عن أي عقيدة. وهم في سبيل ذلك لم يوفروا وسيلة لتفكيك الروابط الدينية للإسلام والمسيحية ويركزون على الأخيرة في أمريكا بشكل خاص نظراً للدور الفاعل الذي يلعبه اليمين المسيحي في القرار الأمريكي.. ويستطيع أي متابع لهذا المشروع أن يَشْتَمَّ رائحة بهارات يهودية في أي طبخة مسيحية حتى باتت الرائحة المسيحية مهددة بالزوال أمام قوة النكهات اليهودية الصهيونية.

لقد بلغ الإجرام باليهود ألا يدعوا قائمة تقوم لدين إلا وبثوا فيها سمومهم وغرزوا فيها مخالبهم و.. أنيابهم.. وهم من وصفهم السيد المسيح عليه السلام (يا أبناء الأفاعي) وحذر منهم الرعيل الأول من الرؤساء الأمريكيين الذين كانوا فقط يفكرون بأمريكا وعزها وهيبتها بعيداً عن مصالحهم ومخاوفهم وتنبأوا بما هي عليه اليوم وحذر أحدهم الأمريكيين من أنهم سوف يصلون إلى ما وصلوا إليه الآن ما لم يطردوا اليهود من أمريكا «أن أبناءكم سيكونون خدماً يعملون ليطعموا اليهود..» وقال آخر: «إنهم ـ أي اليهود ـ كالسوس الخسيس.. ينخرون أي مجتمع يتواجدون فيه.. ليشتتون شمله ويستعبدون أهله ولا يتورعون عن أي عمل إجرامي في سبيل المال الذي هو أساس وسبب دوافعهم للحياة.

وليس عجيباً أن يكون هؤلاء المجرمين الذين يتحكمون بحياة الأمريكيين كما في قراراتهم وأمنهم ورزقهم قد استطاعوا بآلة

إعلامية متمكنة ومستمرة، وبوتيرة تكنولوجية عالية المستوى أن يقنعوا العالم بشكل عام، والأمريكيين بشكل خاص، أن ادعاءاتهم نبوءات واجبة التحقيق. في الوقت الذي تنكر على بقية الأديان استحقاقاتها ووصاياها وفرائضها.. وتنكر على أتباع هذه الأديان سعيهم للقيام بواجباتهم الدينية في الذود عن الحق.. في الأمر بالمعروف.. في النهي عن المنكر.. وكأنهم يريدون إثبات مقولة أنهم حقاً (شعب الله المختار) وكل ما عداهم من الشعوب ليس إلا (غوييم) لا حق لهن في دين ولا دنيا. وكما أشرنا سابقا بأن كل منظومة تولد أخرى يدور الدولاب، فإن ذريعة مكافحة الإرهاب هي مولود جديد تم استحداثها كطفل أنابيب وأرادوا بها القضاء على كل أشكال المقاومة في العالم.. وكل محاولات التمرد على الظلم والجور.. وصار عنوان أي (إرهابي) في العالم: هناك، حيث يكثر الظلم بيدٍ أمريكية أو صهيونيةٍ أو بكلتاهما معاً.

إنهم يعرفون دائماً ما يريدون.. ويعرفون أكثر كيف يصلون إلى أي شيء يريدونه.. بالمثابرة والتخطيط.. بالسياسة والمال.. وكل الممارسات التي حرمتها جميع الأديان السماوية من رشوة وابتزاز وربا.. فعندهم كل الممنوعات السماوية.. وكل المحظورات الدينية مستباحة ومحللة مادامت تخدم مصلحتهم هم وحدهم..

ومصلحتهم اليوم تستدعي منهم إشعال فتيل الحروب الدينية لكل ما فيها وما عليها من تداعيات مدمرة وهدامة.. للمجتمعات التي تقوم فيها ولتلك التي تصدرها..

يقول يوسف الأشقر:

«فمشروع الحروب الدينية التي وقعوه يشهد على جهدهم «المشكور» وعلى خصب مخيلتهم في اكتشاف الحرب المثالية لغرضهم، نظراً لكونها متعددة الوظائف التدميرية، ومكفولة النتائج الكارثية. تاريخها يشهد لها. وقد كانت المذابح والفظائع الجسدية التي خلفتها في العصور الماضية، أهون شرورها. فشرّها الأكبر في كل ما تحدثه في داخل الإنسان. فهي تستنفر أشرس الغرائز وأقبحها وتدفع بها إلى وجه الإنسان لتختزل صورته في عينه وعين الآخر، وإلى واجهة حياته العامة ليواجه بها العالم. تذهب بالجماعات بالجملة ودفعة واحدة، إلى حالات التوحش الأولى ولا تعود بهم إلى التمدن إلا فرادى، وجيلاً بعد جيل، ثم لا تندمل جراح هذه الحروب ولا تمحى من الذاكرة الجماعية، بينما الحروب الأخرى يعالجها مرور الزمن، والأمثلة على ذلك كثيرة: حروب المستعمرين الأوروبيين على آسيا وأفريقيا. حرب أمريكا مع اليابان ومع ألمانيا، حرب روسيا على اليابان. الحرب الأوروبية ـــ الأوروبية، لاسيما بين فرنسا وألمانيا، وبريطانيا من قبل. كلها حروب أصبحت في الغالب من الماضي، وفقدت نبضها في حياة الشعوب، مع أنها حديثة نسبياً ما يزال بعض أجيالها في الحياة. أما الحروب الصليبية التي مضى عليها أكثر من سبعة قرون، فهي بعد، نابضة، على حضور في الخلفيات، وعلى استعداد وأهلية للقفز إلى الواجهة، ولا فرق في ذلك بين قديم الحروب الدينية وحديثها، فكأنها وشم التاريخ.

أصحاب المشروع الحربي يعرفون ذلك ويراهنون عليه. وهم يعرفون أيضاً أن الحروب الدينية أزهقت أرواحاً أكثر بكثير من حروب السياسة، وأن الإنسانية خرجت من الحروب الدينية التاريخية بسلامة واهمة هيهات أن يخرج بها القرن الحادي والعشرون، نظراً لتداخل حياة الشعوب وهول الأسلحة المتوافرة. وهم يعرفون أيضاً موجة الارتداد إلى الدين، ويعرفون أيضاً أنها سيف ذو حدين، فأرادوا تغليب الحد القاتل. ففيما يلتفت بعض أبناء عصرنا إلى الأديان، لعلها تملأ فراغات الرحمة التي أحدثتها مطامع الرحمة السياسية والعسكرية والمالية، ولعلها تسهم، بمحرضاتها على الخير، في استنفار الفضائل والجمالات الإنسانية وفي إبقاء العيون والضمائر مشدودة إلى أعلى بقيمها ومثلها، ولعلها تذكّر الإنسانية بالأغراض العليا الغائبة وبقيمة الإنسان المهينة، أراد أصحاب المشروع أن تفاجئنا الحروب الدينية بقلب الأمور إلى نقيضها، فيأتينا الخطر من حيث طلبنا الأمان. فيطاردنا عنف تدميري انتحاري يستحيل الاحتراز منه، ويصعب تعقبه أو إيقافه. يتقدم كالإعصار، بقوة الوسائل الحديثة وبوتيرة تكنولوجيا سرعة هذا الزمان.

لقد انتقلت القوة العظمى من مقولة «مكافحة الإرهاب» إلى مقولة حربية. ثم حولت الحرب على الإرهاب إلى حروب دينية، فسلطت على العالم كله إرهاب الحروب الدينية الذي هو الإرهاب الأقصى».[1]

(١) يوسف الأشقر ــ «عولمة الرعب» ــ بيروت ــ لبنان ٢٠٠١.

ويؤكد في مكان آخر ما سقناه حول ضرورة إيقاظ الشعب الأمريكي من غفوته بفعل المنوّم الصهيوني فيقول:

«ثمة مبررات واقعية ملحة للتوقف الجاد المسؤول عند هذا الموضوع الخطير. ثم إن ثمة أسباب موجبة، أشد إلحاحاً، لعرضه على أوسع نطاق، خصوصاً على المواطنين الأمريكيين. هؤلاء قد يكونون هم، لا الدولة ومؤسساتها ورجالاتها، كبش المحرقة لإشكالية دولية وإنسانية خطيرة متولدة من النظام العالمي الجديد، وهم لا يعرفون من ملابساتها وأسبابها إلا التفسيرات الرسمية التي يقدمها المسؤولون أو خبراؤهم، أي النخبة المؤسساتية. وهي في الغالب، تفسيرات تأتي نتائجها تضليلية إذا هي طمأنت، وتحريضية إذا هي أرادت أن تحذر أو تخيف. تأتي الطمأنة تضليلية لأنها مخالفة للواقع. فالخطر حقيقي حوقوي وداهم، والمعالجة قاصرة وطائشة. ويأتي التحذير والتخويف تحريضيين لأن المقصود بهما هو تبرير السياسات الأمريكية الإعتدائية لا رد الخطر عن المجتمع الأمريكي. فهما يتصاحبان ويتلازمان غالباً، مع تعيين الأطراف الخارجية الإرهابية المحتملة، استناداً إلى خلفيات سياسية أو ثقافية كخلفية صدام الحضارات»[1]

إن جميع المؤشرات تؤدي إلى حقيقة واحدة هي أن الأمريكيين ليسوا بأمان، ولن يكونوا كذلك أبداً ماداموا على حالهم السلبية.. ولا مبالاتهم هذه.. إضافة إلى الاكتفاء بالتنظير والتحذير من المبالين

(١) المرجع السابق.

منهم.. ستصبح عاجلاً وليس آجلاً، قَلقاً يرافقهم في صحوهم ونومهم.. داخل وخارج بيوتهم وأماكن عملهم ومتنزهاتهم.. وسيبقون كذلك مادامت المناورات الصادرة عن جهاتهم الرسمية تخدعهم وتضللهم بتصريحاتها الكاذبة وتبريراتها الساذجة وتفسيراتها غير المنطقية حول كل ما تسبب لهم من اللا أمن.. واللا استقرار.. واللا سلام.. إن أول ما يجب على الأمريكيين فعله هو الاستماع إلى الآخر الذي تحاول الحكومات الأمريكية ــ الصهيونية إسكاته بكل السبل.. الاستماع إلى رأي الآخر.. دراسة طلب الآخر.. احترام حلم الآخر.. والاعتراف بحق الآخر في الحياة الحرة الكريمة.. وأن يشيحوا بأبصارهم وأسماعهم عما يقوله لهم اليهود وعما يحاولون إقناعهم به.. أن يهتموا بمعرفة ماهية الآخر «الضحية» وتاريخه وجغرافيته ودينه وكل ما يتعلق به باعتباره الضحية أولاً.. والقادم إليهم مطالباً بحقه أخيراً.. وعلى الشعب الأمريكي.. إضافة إلى ذلك، أن يطالب حكومته بأن تطبّق بادئها، القائمة (ادعاء) على الحرية والديمقراطية على بقية الشعوب داخل وخارج أسوار الولايات المتحدة وأن يحرصوا على تنفيذ هذا التطبيق الذي من شأنه أن يرد عنهم أذى الآخر.. يذكرنا هذا بالاستفتاء الذي صدر مؤخراً عن أحد مراكز الدراسات العالمية حيث تم توجيه سؤال عبر الانترنيت إلى الأمريكيين والعالم جاء في مضمونه:

نرجو الإدلاء برأي صريح، وشريف، حول مستقبل الغذاء لدى الشعوب الأخرى؟

فجاءت الردود متفاوتة ومختلفة و.. طريفة، و(قبل الإجابة) استفسر العربي عن معنى (الرأي) والأوربي سأل عن معنى (صريح وشريف) بينما استفسر الإفريقي عن معنى كلمة (غذاء) أما الأمريكي فقد سأل باستغراب: ماذا يعني (الشعوب الأخرى)؟!!

فهل تتاح للأمريكي الفرصة إن بحث عنها ـــ أن يعرف ماذا تعني عبارة (الشعوب الأخرى) وأن يطالب حكومته ببعض الصدق الذي من شأنه أن يبين لهم (الخيط الأبيض من الخيط الأسود) وأن يعترف بحق الآخر ـــ أي آخر ـــ في هذا الوجود بأن تكون له سيادته وحريته وحق تقرير مصيره..

إن الأمريكيين لن ينسوا ـــ مهما مرّ بهم الزمان ـــ هول أحداث الحادي عشر من أيلول والمفاجأة التي بدأت معها وتحولت بعدها إلى غضب متفرع الاتجاهات ومتعدد الولاءات.. فمن غاضب من (الإرهاب) وأهله ودينه إلى غاضب من مسببات هذا (الإرهاب) ومسببيه الذين يعرفهم جيداً.. أو أولئك الذين تعرف عليهم لا حقاً بعد فترة هدوء وتأملٍ لما حدث ويحدث، وأسباب ذلك ومآلاته، وهذا يؤكد ضرورة إدراك ما جاء على لسان ديفيد ليفرنغ لويس الذي ذكرناه سابقاً..

لقد عرف الأمريكيون بعد أحداث أيلول.. معنى الأمن لأول مرة إذ لم يسبق أن شغل حيزاً من تفكيرهم قبلها.. ولم يفكروا فيه سابقاً.. فماذا ينتظرون ليقرروا شيئاً إيجابياً بشأنه؟! وماذا ينتظرون ليعملوا كي يبقى بينهم؟!!

والسؤال الأهم الذي يطرح نفسه بإلحاح الآن على الشعب الأمريكي بشكل عام وعلى الموالين للسياسة الأمريكية، بشكل خاص، وهو: ماذا بعد هذه الحرب، وأي حرب أمريكية، على أي (آخر)؟

وبالتالي ما هو مصير أمريكا والأمريكيين أمام نقمة الشعوب؟ وقد رأينا إرهاصات ذلك في المقاومة العراقية، وقبلها اللبنانية والصومالية.. وحتى الفيتنامية التي لم تمحى من الذاكرة الأمريكية رغم مرور زمن عليها؟!! وما هو مصير أمريكا على خارطة العالم السياسية؟ وهل تبقى وحيدة (القطب)؟ (أم أنها لن تلبث أن تواجه برؤوس أخرى تتمخض الآن وراء أشياء وتسميات مختلفة؟

..هل سيتجاهل الأمريكيون بكل فئاتهم الرسمية والشعبية ما ستتوالد عنه السياسة الأمريكية من المرجعيات في العالم، وما سيتناسل من الأقطاب خارج أسوارها؟!

أسئلة كثيرة تتناثر شظاياها عن كل خطوة سياسية وعسكرية تقوم بها الولايات المتحدة.. ويجب ألا تهدأ فورة التساؤل هذه ما لم يدرك الأمريكيون مآل هذه السياسة على بقية شعوب ومناطق العالم أولاً.. لأن هذا وحده من شأنه أن يوضح لهم بيانات مستقبلهم الأمني..

قد يتفاخر الأمريكي بحرب حكومته الضروس على دولة ما.. هنا أو هناك، لكن الأمريكي العاقل.. وحين يتمعن بالأحداث، وليس

فقط بما ورائها، يعرف جيداً أن لا فعل بدون رد فعل.. وأن الأمم، كل الأمم ليست مجرد حكومات وهيئات رسمية وأصحاب قرارات.. بل إن هؤلاء كلهم ليسوا إلا إفرازاً لشعوب.. وهذه الشعوب هي التي تحدد نوع حاكمها وقاضيها ومشرّع مصيرها.. الشعوب تترك أمرها لحكوماتها.. لكنها لا تتنازل عنه دائماً أو طويلاً إذا وجدت أن ثقتها في غير محلها.. وإذا أدركت خطر اختيارها وما كسبت يداها وإذا أحست بالنار تمسك بأطرافها.. في هذه الحال تتحول هذه الشعوب إلى «ماهيات» أخرى..!!

الأمريكي العاقل يدرك أن حكومته يمكن أن تهزم حكومة أخرى وأن تسقط نظاماً آخر.. وأن تقتل المئات والآلاف.. لكنها لن تستطيع أن تبيد أمة. أن تستأصل عقيدة.. أن تجتذّ الحق من جذوره.. لا تستطيع.. لقد قيل: «الحرب على الدول تكسرها لكن الحرب على الشعوب تفجّرها» ونقول: «الشظايا قد تطال الجميع»..

فكم من الوقت ستصمد أمريكا؟ وكم من المصالح والولاءات ستحتكر لنفسها؟ وكيف؟ إن إغراءات العرش الذي تحتله اليوم وغرور شغل هذه المكانة تعميها عن النظر إلى أن هناك (آخر) قابلا للانفجار وللتحرك و.. للثورة مع أن هنتنغتون قد نبّه إلى ذلك في نظريته.. إلا أن أمريكا قد فقدت على ما يبدو إمكانية السيطرة على مكابح جموحها، خاصة وهي تراقب تناقص احتياطي النفط لدى الدول المسيطرة عليها أو تلك المتقاطعة معها في مصالحها وعليها أن

تسارع وقبل غيرها إلى فرض رقابة شديدة على كل منطقة ذات ثروة وبالتالي فرض سيطرتها عليه (النفط).. وكيف لها ذلك دون حروب ونزاعات وفتن تضرب بها كل العصافير على كل الأشجار؟!!

إن ما تحارب من أجله أمريكا اليوم هو حلم الاحتفاظ بعرش العالم ولو على حساب (العالم) كله.. بما فيهم الشعب الأمريكي الذي بات هدفاً سهل الاصطياد، وأينما كان داخل وخارج أمريكا من قبل ضحايا نظامه وحكومته وسبق لـ (كيسنجر) أن نبه أيضاً من ضرورة فهم الإرهاب و(الإرهابيين) كما تسميهم أمريكا، والذين ليس لهم شكل محدد ولا عنوان معين ولا هدف آخر سوى: (إقناع العالم بضرورة إسقاط النظام الغربي الفاسد) كما أنهم ـــ أي الإرهابيين ـــ عصيون على الاصطياد حيث ليس لديهم ما يخسرون ليهددوا به.. وليس هم دولة لتُضرب ولا شعب ليحارب ولا نظام ليُقْمع.. وهنا يكمن «عقب أخيل» بالنسبة لأمريكا وهذا ما أشار إليه أيضاً محمد جربوعة في نظريته المذكورة حول استهداف الثابت (الدولة بحدودها الجغرافية) والمتحرك (المصالح الخارجية للدولة المستهدَفة) ويتساءل: (كم دولة ستُضرب بسبب ابن لادن)؟![1] وكم شعب سيقتل بحجة صدّام.. وكم طوائف ستتناحر باسم الديمقراطية التي تقتحم بها أمريكا كل الأبواب؟.

لذلك فإن الخطاب الجديد الذي يجب أن يصاغ وأن يُقرأ

(١) المرجع السابق ـــ ص ٣٣.

للأمريكيين بلغتهم ولهجتهم الحازمة وليكون كذلك يجب أن يتضمن نظريات منافسة لتلك المعروضة أمريكياً من حيث قوة الطرح والإقناع كالنظرية الجديدة التي طرحها المفكر الجزائري الإسلامي (محمد جربوعة) والتي يؤكد فيها أن (التاريخ لا ينتهي) بالطريقة (الفوكويامية) وأن الصراع في العالم صراع تصفوي يتمحور حول شبكة علاقات عالمية تمتد خيوطها القوية والوهنة إلى الجميع.. والذي يفوز أخيراً هو ذاك الممسك بالخيط الأقوى.. وما خيوط تلك الشبكة إلا نوعية علاقات وولاءات تشد الممسك بها والقابض عليها بكل ما أوتيت من قوة، لذلك يسحب الخيط القوي المتمسك به ليقطع له وعليه الخيط الضعيف من الطرف الآخر.. وتكمن قوة هذه النظرية (الشبكة) بحتمية أن لكل فرد وجماعة ولاءات وعلاقات ومصالح غير محدودة ويقول محمد جربوعة في نظريته:

«إن الجماعة تبقى (بالنسبة لي)، إفرازاً من إفرازات «التشابك» وهي (أي الجماعة) غير قادرة على استيعاب كل متعلقات الفرد، لهذا يكون لهذا الفرد جماعات كثيرة ينتمي إليها، فهو من الناحية اللغوية ينتمي إلى جماعة (القوم)، ومن الناحية الدينية ينتمي إلى جماعة (الأمة) ومن الناحية المادية ينتمي إلى جماعة تربطه بها (مصالح)، ومن الناحية السياسية والرياضية والثقافية، لذلك تبقى شبكة علاقات الفرد المفضية إلى جماعات أكبر عدّة، أكبر من أن يستوعبها مكان أو زمان... فبالنسبة للمكان هناك تجاوز لمعنى الوطنية، وللفرد المواطن انتماءاته الأممية التي تتجاوز حدود الوطن، كما قد تكون له انتماءاته

المادية إلى مؤسسات أو شركات أجنبية، ومن الناحية الفكرية قد يكون منتمياً إلى جماعة أيديولوجية فكرية غير موجودة في وطنه، وهكذا.. أما بالنسبة للزمان فإن الحركات السلفية مثلاً تتجاوز الواقع لتعلن انتماءاتها لأناس وجدوا في أزمان غابرة، وهذا التحيز المتجاوز للزمن يترجم إلى أي حد هي ممتدة «شبكة» المتعلقات في الزمان والمكان..»[1]

وأمريكا تتقاطع مصلحياً أكثر ما تتقاطع مع إسرائيل ولذلك تجد فيها خير سند وتجد معها قوة موحدة قادرة على فعل الكثير.. ولهذا ولأسباب أخرى كثيرة سياسية واقتصادية يتعاون أصحاب القرار الصهاينة في أمريكا على صياغة كل البرامج التي من شأنها أن تحقق مصالح الطرفين، ومن هنا تتبين الأهداف الخفية لحرب أمريكا على العراق.. هذه الحرب التي تضمن أكثر ما تضمن أمن إسرائيل العسكري بعد القضاء على قوة العراق، وأمنها المائي بعد إمكانية الحصول على مياه العراق إضافة إلى أمنها الديموغرافي الذي يتمثل بإمكانية توطين الفلسطينيين في العراق والعمل على هذا بكل جهد..ولكي يحقق الطرفان.. الأمريكي والإسرائيلي أهدافهما جميعها، أو أغلبها، كان لا بد لهما من التسلح بحجة (الحرب الوقائية) على (الإرهاب) أو بذريعة نشر (الديمقراطية) وإزالة (الديكتاتورية) ولو.. بالقوة. ولكن الديمقراطية التي تقوم بالإرهاب

(١) محمد جربوعة: مهلاً هنتنغتون.. مهلاً فوكوياما، (نظرية الشبكة التصفوية في صراع الثقافات والمادة) ــ ص ٢٨.

ليست ديمقراطية، ومع ذلك فأين كانت الديمقراطية حين أينعت بذور الشر في أماكن مختلفة من العالم (الديمقراطي) وإذا كانت الديمقراطية هي الترياق، فلماذا لم تمنع هذه الديمقراطية ظهور منظمة (بادر مايهوف) في ألمانيا، (والعمل المباشر) في فرنسا، (والألوية الحمراء) في إيطاليا (والجيش الأحمر) في اليابان، ومفجري مبنى الاستخبارات في أوكلاهوما في الولايات المتحدة الأمريكية التي سجل فيها /١٧٠/ عملية إرهابية (ثلاثة منها فقط اتهم فيها عرب ومسلمون) خلال تسعينيات القرن الماضي؟ ولماذا لم تمنع استشراء التطرف العنصري والديني والقومي والتمييز بسبب العرق أو المنشأ في إبادة الهنود الحمر أو استرقاق الأفارقة أو التمييز ضد السود ولمئات السنين في أمريكا نفسها؟ وماذا عن قوانين الطوارئ التي راحت تعتدي على الحرية والدستور والقضاء حتى في بلد الحرية والديمقراطية ذاته؟

أما بشأن الذريعة الأخرى حول ديكتاتورية الحكم في العراق والاستدلال على ذلك بالمقابر الجماعية، فقد كان رد الكاتبة الأيرلندية المقيمة في أمريكا سامنثا باور، في كتابها: «مشكلة من الجحيم» أكثر بلاغة ومنطقية من أي رد أو إدانة لأمريكا، حيث تتهم فيه الكثير من رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية بعدم قيامهم بما يمنع ابشع المجازر في العالم، ولا حتى إدانة مرتكبيها، وتؤكد الكاتبة أن منع مثل تلك المجازر وحده يستحق التضحية بأرواح الجنود الأمريكيين، مستعرضة العديد من الأمثلة على ذلك من المجازر التي تمت في أنحاء مختلفة من العالم مثل البوسنة التي راح فيها خلال

الأعوام ١٩٩٢ ــ ١٩٩٥ (٢٠٠) ألف إنسان، وتركيا عام ١٩١٥ في جزيرة الأرمن، وبعدها التوتسي والهوتو حن لقي ٨٠٠ ألف إنسان حتفهم عام ١٩٩٤، وفي نيجيريا تجاوز عدد الضحايا الأبرياء المليون عام ١٩٦٨. أما في بنغلادش فتقول الإحصائيات أنه حوالي ٢ مليون إنسان قد ماتوا بالأسباب نفسها وبالتجاهل ذاته، وغيرهم الكثير من الشعوب إن تجاهلنا المجازر الصهيونية بحق الشعب العربي والفلسطيني في صبرا وشاتيلا ودير ياسين وتل الزعتر، والقائمة أطول من أن تسع كل الضحايا الذين راحوا دون أن يتدخل رعاة الديمقراطية وحقوق الإنسان في أمريكا.

إن «خارطة الطريق» تؤكد ما نقول، والذرائع الأمريكية ــ الإسرائيلية لم تعد سراً ولا حيلة تنطلي على أحد.. وقد بات معروفاً أن المطبخ في البنتاغون والكونغرس مطبخاً صهيوني الطابع واللون والطعم.. والذي يُراد فرض تذوقه على الجميع.. بل قد فرض فعلاً على الجميع لتحقيق «القرية العالمية» ودون الأخذ بعين الاعتبار الفارق الكبير بين عولمة «التحديث والتقدم المقبولة وعولمة الهيمنة المرفوضة..» إن القرية العالمية المراد تنميط العالم عليها تحمل شروطاً وحدوداً بل وآفاقاً ذات مواصفات أمريكية ــ صهيونية بحتة لا تحتمل شراكة في المواصفات ولا رأياً آخر في الحدود والآفاق.. مواصفات ليس لها سوى صفة الوصاية.. فقط الوصاية وليس الشراكة تحت أي اعتبار.. وهذا يصبّ في مصب قضية (الآخر) غير الموجود في الاعتبارات الأمريكية وسياساتها العالمية.

وإزاء هذه الفعالية القوية للقرار الصهيوني المذيل بالتوقيع الأمريكي كان لابد من ظهور قرار شديد اللهجة ـــ صارم النيّة ـــ قوي الصياغة وبلغة يفهمها الجميع، وليس المعنيون بمصالحهم فقط، ليتضمن (القـــرار) ما من شأنه أن يكشف أسباب الحروب الأمريكية على (الآخر) أياً كان هذا الآخر وأهدافها ونتائجها على أمريكا كما علـــى (الآخـــر) بـــل ويتضمن إعادة صياغة لمبادئ الأمم المتحدة ولدورها وتفعيل صلاحياتها بعد أن أخذت أمريكا على عاتقها لعب دور الجميع.. جميع الأوصـــياء على حقوق الدول والشعوب وأصبحت وحدها صاحبة الأمر والنـــهي في مصير كل من تسوّل له نفسه أن يقف في طريق مصالحها وعنجهيتها واندفاعها المجنون بلا حدود.. مدفوعة بنظريات أوجدها لها مفكـــرون أمريكيو النزعة والهوية والولاء ممن زرعوا في رأسها أن «التاريخ ينتـــهي عند أقدامها» مثل فوكوياما، وأنها يجب أن تبقى متفوقة وبـــلا منـــازع وأنها لم تعد بحاجة إلى الاهتمام بأي سياسة خارجية خاصـــة بعـــد أن تنتهي من «تجفيف المستنقعات» كما أقنعها بريجنسكي تأكيـــداً علـــى تساؤلات ودعوات هنري كيسنجر بهذا الخصوص، فقد أصبحت القوة العظمى الوحيدة بلا منازع في العالم أجمع وهذا أمر لا خلاف عليه بعد أن اقتنعت بنظرية هنتنغتون أن الصراعات القادمة لم تعد عسكرية بعـــد تفردها بالقوة ولا أيديلوجية بعد انهيار الاتحاد السوفييتي بل هي صـــدام ثقافات تتلاقى عند حدود حضارات كل طرف من الأطراف المتواجهة وليس المتقاتلة إذ لم يعد أحد يقاتل أمريكا بل هي فقط محاولات فاشـــلة لرد أذاها.

المنطق يقول أن لكل فعل رد فعل، لذلك كان على أمريكا وإسرائيل أن تتوقعا كل أشكال رد الفعل وليس فقط الذي تريدانه أو ترغبان بحصوله تلبية لمصلحة لهذه أو تلك..

لقد أرادت أمريكا الحصول على تصريح لحربها على العراق التي طال التحضير لها دراسة وأهدافاً ونتائج زمناً كانت فيه تهيئ لهذه الحرب أسباباً مقنعة ففشلت.. ومبررات شرعية لم تنجح.. وحين صار لابد من اتخاذ قرار التنفيذ، ضربت أمريكا بكل القوانين والتشريعات الدولية عرض الحائط وكان ما كان.. ولأن الغرور حصان جامح فإن أمريكا حين تدخل حرباً لا بد لها أن تستمر فيها حتى النهاية حتى تحافظ على تاج عنجهيتها وجبروتها، ولكنها في حربها على العراق، المرفوضة عالمياً ودولياً، شعبياً ورسمياً كانت في أمس الحاجة إلى الاستمرار بهذه الحرب حتى النهاية حتى تخرج منها بوثيقة شرعية تبرر بها فعلتها التي دخلتها بطريقة غير شرعية ولهذا هي قررت البقاء (المؤقت) كما تسميه، وهي لا تنفك تستخرج الذريعة تلو الأخرى لبقائها. فبعد أن فشلت في إثبات التهم الموجهة إلى العراق، أخذت تدعي أن عمليات المقاومة هي من عمل أتباعه ولابد من محاصرتها للسيطرة عليها وعلى رؤوسها الذين ينتمون إلى حزب الرئيس المخلوع، وذلك حتى تضمن انتشار الديمقراطية التي جاءت بذريعتها، وليتم لها ذلك يجب أن تضمن أن الأطراف المرشحة للحكم في العراق هي على قدر هذه المسؤولية ولأنها تعرف تماماً الوضع في العراق بعد سقوط صدام.. وأن الأطراف المتنافسة الآن

على الحكم ليست على وفاق يؤهلها للتعامل مع هذه الديمقراطية، فقد كان التخلص من صدام وحده هو العامل المشترك بينها، وقد زال هذا العامل الآن، فبأي لغة ستتحدث هذه الأطراف مع بعضها بعد (لغة معارضة صدام) وما الذي سيوحدها وكل ما فيها ولها وعليها يفرقها.. إن ما يمكن أن يجمع هذه الأطراف الآن هو إما تبعيتها (إن لم نقل ولاؤها) لأمريكا، خاصة بعد تحريرها لها وتمكينها من رفع صوتها والإدلاء برأيها أو حرصها على نيل نصيبها من الكعكة.. ولكن لأي مدى ستسمح أمريكا لهذه الأطراف أن تَغُبّ من وعاء ديمقراطيتها المسمومة هذه؟.. ولمن ستكون الحصة الأكبر منها؟ هل يمكن أن تنالها جهة ترفض الوجود الأمريكي؟ والديمقراطية الأمريكية والثقافة الأمريكية؟ وإذا استطاعت هذه الجهة أن تتولى زمام الأمور بطريقة ما.. أو لاعتبارات معينة مهما كانت: شعبية وديموغرافية أو حتى تبعية، فمن يكفل أهلية هذه الجهة لهذه المسؤولية؟ ومن يقرر هذه الأهلية؟! وفوق هذا وذاك إلى متى ستقبل هذه الجهة الفائزة بالتبعية الأمريكية وكيف ستتعامل معها؟! ومن جهة أخرى كيف سيتم امتصاص ردات فعل بقية الأطراف المتنافسة؟ هل سيتم قمعها؟ أم إخماد صوتها؟ أو شراؤها؟ أو مواجهتها مهما كانت النتائج لتعود دورة الزمن إلى ما كانت عليه؟!!

ثم ماذا عن آثار وتداعيات هذه الحرب على الشعوب العربية والإسلامية؟..

ولأننا بصدد الحديث عن الفعل وتأثيره على الصعيد النفسي

لدى الشعوب وما يجب أن يكون عليه رد فعلها باعتبارها طرفاً هاماً في المعادلة التي تسعى لتحقيق وكسب الأمن والعدالة.. فإننا نقول: أن الحرب الأمريكية على العراق، بأسبابها وأهدافها الظاهرة والخفية، قد بدأت بمقدمات استمرت طويلاً.. لكنها لم تنته كذلك، فقد تبين أن الخروج يشكل مأزقاً يفوق مأزق الدخول.. فمن الناس من صدّق ما حدث ويحدث ومنهم من لم يصدّق.. «منهم من آمن ومنهم من كفر»، إننا ومن منطلق الصدق مع الذات والصراحة مع الآخر نذكر ولو بحسرة تعليق إحدى المواطنات لدى سماعها نبأ سقوط بغداد ودخول الأمريكيين قصور صدام واختفاء هذا الأخير حيث قالت، بشيء من الهستيرية المحيّرة بين الضحك والبكاء: أريد أن أحتفل اليوم بهذا.. أريد أن أخرج إلى الطبيعة وأصرخ وأضحك.. وحين سُئلت فيما إذا كان سقوط بغداد وصدّام يفرحها إلى هذا الحد أجابت.. ليس لهذا أحتفل.. بل إنني سعيدة بصحوتي من غيبوبة طالت بي، كنت فيها لا أسمع أخباراً إلا عن البطولات العربية التي والضمير العبري هي ــ كما أقنعوني ــ كطائر الفينيق.. دائماً يصحو من جديد.. وكنت في غيبوبتي أحلم بحلم واحد هو العروبة والوحدة العربية وأسبابها.. اليوم أدركت أن هذه الرؤية على جمالها وتأثيرها... مجرد حلم.. لا أكثر، صوت منه متأخرة، وترك آثاره على نفسي وأفكاري ومشاعري وحتى على وطنيتي.. لكني مع ذلك صحوت منه.. ولهذا أريد أن أحتفل بشفائي وصحوتي..

هذه الحالة فردية، إحدى أشكال ردّات الفعل التي أرادت

أمريكا إيصال الإحساس بها إلى الشعوب العربية لتفقد، بعدما فقدت الثقة بكل شيء حتى الشعور بالأمل، والاقتناع أن أمريكا.. وأمريكا فقط هي المآل.. ولكن ماذا عن غيرها من ردات الفعل؟ نقصد الحالات العامة وليست الاستثنائية، ردات فعل الأغلبية وليس الأقلية؟..

ماذا عن المتطوعين العرب والإسلام، مثلاً، الذين هرعوا إلى العراق لنصرته على الغزاة؟ إن هؤلاء لم يذهبوا إلى العراق دفاعاً عن صدّام.. ولا عن نظامه.. لقد ذهبوا هناك دفاعاً عن عقيدة يقاتلون في سبيلها.. لا عن حدود يريدون امتلاكها ولا يريدون الاستيلاء عليها.. ولهذه العقيدة بدورها أشكال وألوان، فمنها من لبست لبوس العروبة الأصيلة.. ومنها من وضعت عمامة الدِّين والدفاع عنه ونصرته.. ومنها من حملت سلاح الكره لأمريكا ولجبروتها ولديكتاتوريتها وتفردها بحكم العالم، شاء هذا العالم أم أبى، وهؤلاء كثر.. مثلهم في هذه الحرب دعاة السلام والدروع البشرية الأجنبية، التي سبقت العربية، إلى العراق لتعبر عن رفضها القاطع للسياسة الأمريكية.. وهذا هو أهم مؤشرات تداعيات هذه الحرب على المستوى الشعبي العالمي والتي تقول أن العالم كله يرفض السياسة الأمريكية وليس العرب وحدهم.. وليس الإسلام وحده.. وهذا هو أهم ما يجب أن يدركه الشعب الأمريكي..

إن الشعب الأمريكي يعي الآن تماماً أن ما نجحت سياسة حكوماته المتعاقبة، وخاصة الأخيرة منها، في ترويجه عالمياً هو نظام

«عولمة الحقد» التي نشأت عن «عولمة العنف» وهذا ما لم يؤخذ بعين الاعتبار في البرنامج الأمريكي للسيطرة على العالم.. أو أن أمريكا قد تكون أخذته بالحسبان لكنها وبسبب غرورها وعنجهيتها رأت أنها قادرة على محاصرة هذا النوع من العولمة التي كانت السبب في نشرها ورأت أيضاً أنها ــ أي عولمة الحقد ــ مهما امتدت وانتشرت ستكون تحت السيطرة باستعمال وسائل القمع الأمريكية التي تحمل عدة مسميات كمحاربة «الإرهاب وأسلحته كما ادعت» أو نشر «الديمقراطية» أو «تحرر الشعوب» أو كما نصحها فريدمان. فأمريكا لا تريد خلع هذا الثوب عنها، ونذكر قول عمدة نيويورك بلومبيرغ إبان أحداث أيلول الذي قال: «هناك فخر تقريباً بأننا قد اجتزنا ذلك، (ضربات ١١ أيلول). ونحن أصلب عوداً لها. تخيل ذلك، الإرهابيون قد صلبوا عود أهالي نيويورك لأن هذا ما يحدث عندما يضربوننا حيث نحن أقوياء..».

إن نظام «عولمة الحقد» الذي بذرت أمريكا بذاره في كل أراضي المعمورة يُسقى الآن بعولمة العنف الأمريكي.. ويُسَمَّدْ بالعقيدة المترسخة عند شعوب العالم الناشدة إحلال الأمن والسلام والمتطلعة الساعية لإحقاق الحق والعدل بين الناس الذين استعبدهم أمريكا من بعد أن ولدتهم أمهاتهم أحراراً..

هذه العقيدة الراسخة.. والتي جاءت تلبس، كما أسلفنا، لبوساً متعدد الألوان والأشكال، سوف تتبدى بصورة ما.. بشكل ما.. بلغت ما يوحدها مصطلح واحد..هو «الرفض» للسياسة الأمريكية..

فإلى متى ستبقى الحكومة الأمريكية تستخف بصدى هذا الرفض؟ وهل لا تزال العنجهية الأمريكية تستبعد أن تُستهدف من جديد..؟! هل نسيت أيلولها الأسود والأحمر؟ هل ما عادت تذكر أن أمن سفاراتها في العالم ليس بخير؟ ومصالحها الخارجية كما الداخلية مهددة حتى الفناء؟ و... و... إلى متى يبقى الشعب الأمريكي ضحية عنف حكوماته على العالم؟ وهل يستطيع أن يعيش على هاجس الضربة الآتية من «المجهول» سواء بقي في منزله.. أو في مؤسساته أو ذهب سائحاً لأي مكان يحلم به في العالم.. هل سيضمن سلامته؟ قد آن له أن يعلم أن الطلقة المحشوة في بندقية عدوه أمريكية الصنع والمادة والمعنى و.. الهدف. ولذلك لا بد للأمريكيين أن يتحركوا ليدافعوا عن أنفسهم أولاً وعن قيم مسيحيتهم الحقيقية ثانياً.. إن الإسلام لا يأمر بالقتل، وحين قال: «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم» لم يكن يعني «الإرهاب» الشائع اليوم بالمعنى الغربي للكلمة.. و«الفعل الإرهابي» إسلامياً هو الفعل «الكبير» أو «الجلل»، وليس فعل «القتل». إلا أن المفهوم الغربي للكلمة كان يجب أن يتطابق مع المصلحة الغربية ولهذا تم تشويه المعنى الأصلي للكلمة. كما أن الإسلام، كالمسيحية، دين تسامح وسلام طالما هناك فرص متاحة لذلك تؤدي غرضها في نشر الحق والعدالة، أي بعيداً عن القتل والاقتتال وزهق الأرواح وخاصة أرواح الأبرياء من النساء والشيوخ والأطفال، ولطالما أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته الصالحين الأمثلة المشرفة على ذلك، بمنح

الأعداء فرص التراجع عن الخطأ أو الكفر، وكثيراً ما نجحوا في ذلك. إلا أنه حين كانت الجهود تبوء بالفشل كان يلجأ للقتال، لأن الأمور في الإسلام بغاياتها، وغاية الإسلام الحقيقي هي إبعاد المفسدة وإحقاق الحق في إطار الخير والعدالة للجميع وليس لشعب دون آخر.. لأن الإسلام للإنسانية وليس عليها،ومع ذلك فهو يمنح أعداءه فرصاً للتراجع ليس عن دينهم، بل عن كفرهم بالآخر، وإيذائه وإلحاق الضرر به الذي ترفضه ديانته ذاتها، ولكن كيف للقائد الذي لا يحترم ديانته المسيحية الحقيقية ويخالفها في كل تعاليمها، أن يحترم الأديان الأخرى.. أياً كانت؟!! ومن لا يفكر بالشرائع السماوية، هل يؤمن بالشرائع الأرضية التي تتحدث عن حقوق الإنسان؟ والمساواة والعدل بين الناس، وكل ما تحدث به الأسلاف المؤمنين والوطنيين؟

إن العرب والإسلام والعالم كله ـــ رغم حقده على أمريكا ـــ يخاطب الشعب الأمريكي كضحية وليس كجلاد أو قاتل.. يخاطبونه وهم يتوسمون فيه رواسب قيمه الأخلاقية والدينية.. يتوقعون منه أن يتعامل بإنسانية مع قضايا الشعوب الأخرى.. يطلبون منه أن يفكر (بالآخر) ويستمع إليه ويناصره.. وأن يتوقف عن لعب دور «البيادق»، فوق رقعة الشطرنج الأمريكية، التي تحمي حكامها من خلفها بينما تتلقى الضربات عنها.

ولكي يصل الشعب الأمريكي إلى هذه القناعة لا بد له من محطات يتوقف عندها حيث تركت الإدارة الأمريكية هناك آثاراً جلية بالتواطؤ مع لوبياتها الحاكمة في الكونغرس.. فأميركا نفسها،

مثلاً، قد ساعدت صدام حسين في الإطاحة بعبد الكريم القاسم ليتسلم زمام الحكم بعده بمباركتها، وفي عهد ريغان وبين عامي (١٩٨٣ ــ ١٩٩٠) زودت العراق الذي كانت قد قطعت العلاقات معه منذ عام ١٩٦٧ بمواد بيولوجية وكيماوية وجرثومية مع علمها باستعماله لها ضد على الأكراد في الشمال،وفي إنتاج أسلحة الدمار.. إضافة إلى تزويده بمعلومات استخباراتية تساعده في حربه مع إيران لأنها تجاوزت الخطوط الحمراء المرسومة لها آنذاك. ولم تنس لها أمريكا مساعدتها في الإطاحة بالحكومة الوطنية في إيران عام ١٩٥٤ على يد CIA وبإيعاز من الرئيس أيزنهاور، لقد تمت العملية بنجاح سريع... وكلفة باهظة وطويلة الأمد، فالعملية كانت رداً على تأميم الزعيم الإيراني «مصدق» لشركة النفط، وقد حلت محل الشركة المؤممة شركة أخرى، استولت بريطانيا وأمريكا على ٨٠% من أسهمها وأرباحها.. وكان من أهم النتائج السلبية لهذه العملية تولد مشاعر العداء تجاه أمريكا لدى شعوب المنطقة بسبب تأييدها (أمريكا) لنظام الشاه وسياسة القمع التي كان يتبعها، وقد كان همّ أمريكا آنذاك هو قطع الطريق على الاتحاد السوفييتي باتجاه إيران والعالم العربي.. لتحصل هي على النفط، وحين تنامت مشاعر العداء بدأت أمريكا بالضغط على الشاه لتعديل سياسته القمعية لكنه لم يلتزم بأوامرها، فبدأت بسياسة جديدة تجاه إيران والمنطقة والإسلام...

ولم يتوقف تقلب السياسة الخارجية الأمريكية تجاه إيران رغم

انهيار الاتحاد السوفييتي وهو مؤشر على الموقف الأمريكي المتخوف من الإسلام ويزداد الموقف تخوفاً مع بوادر تقارب إيراني سعودي الأمر الذي يخشى من تأثيره على المصالح الأمريكية في المنطقة.

واستمر الموقف الأمريكي الداعم للعراق في حربها مع إيران لسنوات طويلة فقد فيها العراق الكثير من إمكاناته المادية والعسكرية والبشرية.. ثم ما لبث الضوء الأخضر الأمريكي أن أضيء ليسمح للعراق بـ«غزو» الكويت معلناً أن الأمر لا يعنيه، لكنه سرعان ما كشر عن أنيابه وهجم «مدافعاً» عن (مصالحه في) الكويت مستنزفاً ما بقي للعراق من القوى والإمكانات التي بذل في تأسيسها ميزانية هائلة. ويبدو أن مصلحة أميركا آنذاك كانت تستدعي حيازة العراق على هذا السلاح الذي أصبح محرّماً فيما بعد ويشكل خطراً، لا يجب أن يُسكت عنه، على أمريكا وإسرائيل بل والعالم كله!! وهذا ما يوحي بسعي أمريكا إلى التخلص من رؤوس الحكم العراقي لا إلى مجرد إلقاء القبض عليهم، الذي سيضطرهم إلى عرضهم على المحاكمة وبالتالي كشف الأوراق التي لا تريد أمريكا كشفها.

والحقيقة أن سلاح التضليل ليس وليد اليوم في أمريكا، فالرئيس «دوايت أيزنهاور» نفسه وهو الذي كان يتمتع بالاحترام الشديد، قد لعب الدور ذاته ذات يوم إبان فضيحة طائرة الاستطلاع U2 عام ١٩٦٠ والتي نجا منها الطيار «فرنسيس جاري باورز» بعد سقوطه في مجال الأراضي السوفيتية بعد أن أنكرت الخارجية الأمريكية أن تكون الطائرة تجسسية، إلا أن الحقيقة قد صدمت الأمريكيين

برئيسهم (بطل الحرب المحترم) فكيف بما تلاه من الرؤساء وفضائحهم في هذا المجال وغيره؟!

كما أن ليندون جونسون، الرئيس الأمريكي الأسبق، قد حمل الطرف الأول من حبل الكذب الأمريكي الطويل، والأمريكيون يعلمون كيف كان الناس أيام ليندون جونسون يتداولون نكتة يسأل فيها شخص شخصاً آخر:

ـ كيف تعرف أن جونسون يكذب؟ فيجيب الآخر: عندما يحرك شفتيه.

وجونسون ذاك قد تجاوز حدود الكذب العادية حينما كان يعلن للشعب على لسان وزير دفاعه روبرت ماكنيمار أثناء حرب فيتنام: «أن كل شيء يسير على ما يرام وحسبما خططت له الإدارة الأمريكية» مع أن هذا الكلام كان بعيداً جداً عن الواقع. يذكر دانييل سكور، وهو محلل أخبار رئيسي في إذاعة National public Radio أنه حين اندلعت حرب فيتنام حوَّلت، بعدد قتلاها وإدارة الأخبار فيها والإجراءات التعسفية الأخرى التي صاحبتها، علاقةَ التعاون ما بين الإعلام والجيش والتنسيق ما بينهما إلى علاقة خصومة وتنافر. بعد أن طفح الكيل بأولئك القادة والجنرالات الذين عادوا من حرب فيتنام ناقمين ساخطين على الدور السلبي الذي لعبته الصحافة في تلك الحرب وحملوها مسؤولية انحسار الدعم الشعبي والجماهيري للحرب، وحين اندلعت حروب لاحقة في عقد الثمانينيات ضد كل

من غرينادا وبنما حرص أولئك الجنرالات كل الحرص واتخذوا الإجراءات اللازمة التي تؤمن إقصاء الصحافة تماماً من المجال الحربي.. ورغم مرور زمن طويل على ذلك كله، إلا أن أمريكا ما فتئت ترتكب الخطأ ذاته، وقد تكرر خطأ حساباتها في حرب الخليج الثالثة حتى في هذا المجال، وذلك حين ألحقت خمسمائة صحفي أمريكي بالقوات والوحدات العسكرية لمنحهم فرصة أن يكونوا أبطال هذه الحرب الإعلاميين ظناً منهم أن الحرب التي ادّعوا أنها ستكون سريعة وحاسمة و.. لصالحهم تماماً وبأقل قدر ممكن من الخسارة الأمريكية.. إلا أن الرياح جاءت كما لم ولا تشتهي سفنهم.. فالمهمة بدت أصعب من التنبؤات، والدفاع لم يكن سهلاً كما كانت التوقعات والمقاومة لم تكن تمرداً كما ادعت الاستشارات..!! إضافة إلى ذلك كله كان هناك إعلام قوي مضاد وما لبثت البعثة الإعلامية الأمريكية أن استبعدت فيل سموكر، مراسل صحيفة «مونيتور» لإفشائه معلومات خاصة في لقاء تلفزيوني أجرته معه محطة سي إن إن، كما ضغط البنتاغون بشدة على المحطات الأمريكية التي حصلت على شريط يصور الأسرى الأمريكيين وكذلك القتلى من الأمريكيين والبريطانيين كي لا يتم بث هذا الشريط مراعاة لذويهم الذين لم يكونوا قد علموا بمصيرهم بعد، لكن بث قناة «الجزيرة» لهذا الشريط جعل الأمر يبدو واضحاً بالنسبة للعالم في كل مكان وفي أمريكا بشكل خاص حيث عرف الجميع المدى الذي بلغه الكذب الأمريكي الذي نجح (طويلاً) لكنه لن ينجح (أخيراً) وقد أثرت هذه السياسة

الإعلامية التضليلية في سير الأحداث بشكل ملحوظ وذلك باعتراف مسؤولي الإدارة الأمريكية الذين اعترفوا أنهم أخطأوا بإخفاء المعلومات الحقيقية وأنه كان عليهم الاستفادة من حروبهم السابقة على أفغانستان واتباعهم السياسة الإعلامية ذاتها حين كانت وزارة الدفاع الأمريكية تنفي أية معلومات من شأنها أن تؤثر سلباً على المعنويات العامة.. مما دعا الإدارة الأمريكية إلى إعادة صياغة رسالتها الإعلامية للأمريكيين والعرب على حد سواء والاعتراف علناً بخسائرها، بعد أن أصبح نكرانها أو إخفاؤها صعبا بل مستحيلاً في ظل انتشار التكنولوجيا في العالم بما فيها منطقة الصراع.

أردنا القول أن كل ما يدور في فلك هذه الحرب، كان الكذب أساسه منذ البداية التي أتت،كما أسلفنا، بالأمريكيين بحجج واهية كان آخرها الادعاء بإيجاد بديل مناسب للنظام الديكتاتوري، وكلمة مناسب تعني لهم بديلاً ذا ولاءات أمريكية بالطبع.

وإننا إذ ننطلق في عرضنا لتاريخ «التضليل» الأمريكي، من الكذبة الأخيرة المتمثلة بأسباب حرب أمريكا على العراق فإنما أردنا القول أنه لم يعد يفيد أن تأتي كوندوليزا رايس ـــ مستشارة الرئيس الأمريكي للأمن القومي ـــ لتعلن أن «أية مساعدة، صغيرة كانت أم كبيرة، من أية دولة، يمكن لها أن تساعد على الانتصار في هذه الحرب) مع أن أمريكا ذاتها تجاهلت أصوات كل الدول ونداءاتها، بالامتناع عن، ثم بوقف هذه الحرب و لم تقدر حين بدأت حربها، إرادة شعوب العالم ورغبتهم في العيش بسلام بينما هي تعلن تقديرها الشديد ـــ كما تقول مستشارة

الرئيس ـــ لأية مساعدة استخبارية كانت أم استطلاعية أم تلك التي جاءت على شكل قواعد عسكرية وأجواء تستخدمها أمريكا في حربها على العراق مدعية أن مثل هذه المساعدات ستسرع وتيرة الحرب وبالتالي تخفف من آلام الشعب العراقي.. تنادي (جميع الدول أن تقف صفاً واحداً لمواجهة التهديدات البارزة، ومواصلة الحرب على الإرهاب ومكافحة الأسلحة النووية والبيولوجية والكيماوية) وذلك بحجة منع كارثة أسوأ تهدد العالم.. تقول المستشارة ذلك دون أن تعير إسرائيل وما تخفيه ـــ وتعلنه ـــ من أسلحة الدمار الشامل، أي انتباه.. إنها لا ترد أصلاً على أية احتجاجات عربية أو غربية بهذا الشأن، بل تكتفي فقط بإعلان كذب أو خطأ مصادر المعلومات لديها، وبالتالي الاعتراف بأنها ضُلِّلت..فهل يمكن أن تكون المرأة المستشارة الأولى للرئيس الأمريكي ولشؤون الأمن القومي، والمتوقع أن تصبح وزيرة للخارجية أو حاكمة لولاية، وربما ولمرة الأولى رئيساً لأكبر دولة في العالم، وإن كانت هذه الفرصة شبه مستحيلة، لأنها بخلاسيتها أقرب إلى السود منها إلى البيض الذين وحدهم يستأثرون بالبيت الأبيض؟ هل يمكن أن تكون هذه المرأة بكل إمكانياتها لا تعلم عما تتحدث حين تدلي بتصريح أو تصدر بيان؟ وهذا ليس تجنياً عليها من قبلنا، بل هو رأي محض أمريكي ومن هنا تنبع مصداقيته وقوته، حيث أبدى الأمريكيون استغرابهم واستنكارهم إزاء تهربها من الرد على ما ورد في تصريحاتها من الكذب والتلفيق. وقد قال هنري واكمان عضو الكونغرس الديمقراطي:

«إذا لم تكن مستشارة الأمن القومي تفهم التحذيرات المتكررة

لوزارة الخارجية ولوكالة إسرائيل «لسي أي إيه» حول مزاعم اليورانيوم، فإن هذا يمثل مستوى مخيفاً من عدم الكفاءة. وسيكون أكثر خطراً من ذلك لو أنها كانت تعلم التحذيرات الاستخباراتية وتجاهلتها، وتعمدت تضليل الشعب. وفي كلتا الحالتين فليس هناك من سبب يجعل الرئيس أو الرأي العام يثق في مكتبها».

كذلك هو الحال في وزارة الدفاع الأمريكية التي امتهنت أيضاً الكذب على العالم عن طريق محطة فريدة مثل CNN، التي عقدت معها صفقة لقاء مبلغ كبير من المال يسمح للوزارة بتحديد واختيار ما ينشر ويعرض على هذه القناة، التي كانت الأولى في قائمة وسائل الإعلام الأكثر كذباً في استطلاع أجري مؤخراً. ونظراً لما نقلته محطات عالمية وتحليلات دولية حول هذه الأحداث، لكن الإعلام الحديث استطاع أن يؤطر عملية الغزو الإعلامي الذي تنتهجه أمريكا التي ارتكبت خطأً كبيراً بتجاهلها للإعلام العربي معتمدة في تجاهلها هذا على عدم ثقة الشعوب العربية بإعلامها كونها تعاني من ضيق هامش الحرية الإعلامية.. متجاهلة انتشار تكنولوجيا المعلومات والإنترنت في العالم كله بما فيه العالم العربي وإمكانية إطلاعه على العالم عبر هذه التكنولوجيا التي أحالت العالم والأحداث الجارية فيه إلى شاشة تنتقل الصور فيها بكبسة زر، ويمكن لأي مواطن في أي مكان في العالم أن يعرف حقيقة ما يجري في كل مكان على الكرة الأرضية.. لقد صارت هذه التكنولوجيا هي الفاعل في لغة العصر وصار العالم هو المفعول به أما المجرور فهو كل من يُصدق ما لا يُصَدَقْ.. وليس الكذب لأميركي سوى المفعول المطلق

بكل ما يدور اليوم في دهاليز لغة الإعلام الممجوجة، وقد أدرك الشعب الأمريكي ذاته ذلك، فرغم الجهود التي تبذلها وزارة الدفاع الأمريكية في سبيل راحة عائلات الجنود الأمريكيين كتعويض لهم عن فقدانهم، الدائم أو المؤقت، لأبنائهم الذين تستأجرهم الحكومة الأمريكية للخوض في حروبها باسم الواجب.. تناديهم باسم الوطن.. وتسترزقهم باسم كل ما هو ليس منطقياً، فقد أدرك الشعب الأمريكي تلك الادعاءات وقد قالها والد أحد (الجنود) الأمريكيين في العراق: «الحقيقة.. أول ضحايا الحرب».

وهنا يحضرني وبقوة مقطع حواري من رواية محمد جربوعة «المجنون» حيث يتبادل زوجان أمريكيان الحوار الآتي:

ومارغريت هذه امرأة من أصول هسبانية، أما زوجها فمن أصول بيضاء، بريطانية على الأرجح، والبيض يتخوفون من تنامي نسبة ونفوذ الهسبانيك في البلاد، وهناك ولايات كثيرة تغيرت تركيبتها السكانية لذلك، ونَهَرَها زوجها بلطف:

ـ أعذرك... وأعرفُ مقدار صدمتك بابنك... لكن رجاءً هوّني على نفسك...

ـ أُهون على نفسي... كيف وابني المقتول سيصِلُ بعد ساعات في تابوت مغلق، وقد نرى منه عضواً سالما، وقد لا نرى ذلك البتة...

ـ «المجرمون، الهمج، المتخلفون، قتلوه، تباً لهم»... قال (بِينْ) ذلك وضرب الطاولة أمامه بقبضته فاهتزت، وسقط من فوقها

غليونه، والشمعدان الثلاثي الذهبي اللون بما فيه من شمعات... وقالت زوجته:

ـــ الهمج كما تقول لم يأتوا ليقتلوه هنا... بل قتله الذين أخذوه ليقاتل في أرض ليست أرضه...

ـــ «لكن عن فكرة هي فكرته»، قال زوجها مقاطعاً، فردّت:

ـــ قل لي بحق السماء، ما هي هذه الفكرة التي خرج ابنك يقاتل من أجلها في أفغانستان، والتي أراك مقتنعاً بها حدّ التسليم بموته...؟!

إننا نحمي للآخرين أراضيهم، لكننا نحمي فيها أفكارنا.

ـــ إن أبناءنا هم جند الشيطان في المعركة الخطأ... وإلا فأي حق هذا الذي يأمرنا الله بإخراج أبنائنا لحمايته في أقصى الأرض...؟!!

ـــ فعلاً... لو أُعطيَتْ لك دفة السياسة... لرجعتِ بأمريكا إلى البيت.

ـــ وماذا فعل الذين أخرجوها إلى بيوت الآخرين... هل فَعَلوا أكثر من أنهم حرمونا الأمان وألبوا علينا جنون المنتقمين، ونقمة المجانين...؟! هيهْ... قل لي ماذا أكثر من ذلك؟.ماذا يفيد أن تحقق نخبة مجنونة طموحها التوسُعي ويفقد الشعب كله أمنه واطمئنانه...؟!!

كفى يا امرأة... أرى أن الصدمة قد أثرتْ على أعصابكِ وعقلكِ... هل جننْتِ؟!!

ـ كثيراً ما حدثتمونا عن الديمقراطية، وعن حكم الشعب نفسه بنفسه... فهل الشعب يختار لنفسه الموت من جراء سياساته تجاه الآخرين وظلمه لهم؟! هنا يا(بينْ) قلب الديكتاتورية ومركز التسلط.إن الذي يحكم أمريكا ليس هو شعبها... إن الحاكم الفعلي هو هذه العصابة التي تملك هنا كل شيء... المال، والإعلام، والسلطة، والرفع، والخفض، والنصب... هل تستطيع أن تُقنعِني بغير ذلك؟!!

كان وقع نَعْلِ الكهل على الأرضية منتظماً، بطيئاً... و لم تحاول أن تلتفت إليه، وهو يقصد الباب، ثم يعود إليها، وقبل أن يبْلُغَها، قال:

ـ مارغريت... رجاءً لا أعصابي ولا أعصابك تحتمل أكثر من هذا، بل ولا هذا... لذلك ارحميني فأنا رغم كل شيء أب يفقد ابنه.

ـ ولماذا تأسف عليه أيها الأب الحنون، وقدْ مات حسب اعتقادك لتحيا أمريكا، ثق يا (بينْ) أن الشعب هنا قد يسكت إذا ما أصيب في المرة الأولى، وقد يسكت في الثانية والثالثة، لكنْ لكل شيء حدود... وحين يطفح الكيل لن ترضى عشرات الملايين أن تدفع الثمن من أمنها، ودماء أبنائها، ومصالحها، فقط لتحقق نزوة هذا هنا... أو تساند ذاك هناك، وحينها ستخرج الجموع لتنقضّ على

هؤلاء الذين يرمون الآخرين ثم يعرضون الشعب للخطر مختفين خلفه متترّسين به...

ـــ هذا هراء يا مارغريت... كأنك تتحدثين عن ثورة شعب في العالم الثالث، استفيقي يا عزيزتي... هنا أمريكا.

ـــ للأسف فقد سبقتنا شعوب العالم الثالث في التحرر، لكننا سنلحق بها... هذا مؤكد... لأن التحرر ليس له زمان ولا مكان.

ـــ أراك تتكلمين عن الحرية وكأننا مُستعبدون يا امرأة...؟!!

ـــ أنا أقرّ أنني مستعبدة، فقد أُرْسِل ابني إلى معركة كنت أعلم أنها ليست معركته، ورغم ذلك لم أستطع الممانعة... وابني ذاته كان عبداً... ولو لم يكن غير ذلك فلماذا لم يجهر بما كان يسرّه لي من كونه غير مقتنع بما هو مقدم عليه...؟!!

وقامت من مقعدها، ثائرة توجه سبابتها إلى وجه زوجها:

ـــ وأنت... هل تستطيع أنْ تفعل أكثر من التفاعل مع ما هو مرسوم لك؟! لقد ترشحت لانتخابات الكونغرس، وتعرف بأي دعم فاز خصمك وبأي ولاء...

وكالتي فقدتْ عقلها، صرخت:

ـــ كفانا كذباً على أنفسنا يا رجل... هل تستطيع أنت الأمريكي أن تحكم بلادك إذا لم يساندك رئيس وزراء إسرائيل عبر لوبيه هُنا؟! هيا قل لي، لماذا صمتَّ؟!.. قل لي... وهل تستطيع حتى

إذا أنت وصلتَ إلى سدة الرئاسة أن تتجرأ وتعلن في سيادة وقْفَ المساعدات المالية لإسرائيل في تقتيلها لأطفال العرب والمسلمين...؟!!

وهذا يؤكده أيضاً الجنديان البريطانيان اللذان أعيدا إلى بريطانيا ليمثلا أمام المحاكم العسكرية البريطانية لتمردهما على جيشهما لأنهما كما قالا لم يعلما أن مهمتهما كانت لهذه لأسباب وعلى هذا لشكل من القتل والتدمير للشعب البريء.. وهذا ما يؤكده أيضاً الجندي الذي ألقى القنابل على قادته الغربيين... وغير ذلك مما جاء من الأحداث.. والتمردات.. والمفاجآت..

وعلى صعيد آخر فقد كان لاتخاذ قرار الحروب حكايته و..شأنه، فبعد تورطها في حرب فيتنام نجح الكونغرس في منح الرئاسة الأمريكية فرصة اتخاذ القرار بإرسال قوات مسلحة إلى الخارج. إلا أن إصدار القرار الرسمي من الكونغرس الذي يلزمه مدة ستين يوماً ليصدر.. وهي مدة كافية ليكون الأوان قد فات بالنسبة لأية أزمة أو حتى حرب يمكن لها أن تحلّ خارج إطار الحرب أو «التدخل العسكري» كما تسميه أمريكا التي بدأت النزعة العدائية فيها مع قدوم رونالد ريغان الذي أحدث ثورة لإعادة أمريكا إلى «أصولها المحافظة» رافعاً شعار: «البقاء للأقوى، وبعد تدخلها المكشوف لصالح إسرائيل، منذ قيام دولة الأخيرة مروراً بوجودها في لبنان عام ١٩٨٢، حين تجاهل الرئيس ريغن قرار الكونغرس بالرفض أمر الرئيس الأمريكي قواته بالانسحاب بعد تعرضها لخسائر بشرية غير متوقعة..

وعليها.. أرسل جورج بوش قواته إلى العراق عام ١٩٩١ دون انتظار قرار أو موافقة الكونغرس بهذا الشأن وقد قالها علانية بعد حصوله على الموافقة: «سواء تمت الموافقة أو لم تتم.. لم يكن ذلك ليمنع التدخل العسكري..» ولعلّ أسوء ما في الأمر أن قرار الرئيس الأمريكي بأي تدخل عسكري يصدر بناءً على رؤيته ونظرته إلى ما يدور من متغيرات وما يتناسب مع المصالح الأمريكية مها كما يقول الباحث ستيفن شبيغل[1] «أن السياسة الأمريكية ليست نتيجة للواقع ومعطياته الحقيقية بل هي حسب نظرة الرئيس الأمريكي لهذا الواقع ولهذه الحقائق وأولوياتها..».

وامتدت نيران ثورة ريغن هذه لتبلغ أوجها على يد الرئيس جورج بوش الابن الذي قالت عنه هيلين توماس، عميدة السلك الصحافي في البيت الأبيض:

«لقد قام «بحرب وقائية» في العراق «غير صحيحة»، فميثاق الأمم المتحدة ينص على أن دخول بلد الغير يكون في بلد الدفاع عن النفس أو إذا كانت ثمة معاهدة مع دولة تتم مهاجمتها وهذان المعطيان غير متوافرين في مسألة دخول العراق، فهو بلد كان محاصراً لنحو ١٢ سنة ويقصف كل ليلة خلال العام الماضي، وتحديداً قبل الحرب وكان غير قادر على القيام بما اتهم به».

(١) Steven Spiegel — «الصراع العربي — الإسرائيلي الآخر، صناعة سياسة أمريكا في الشرق الأوسط من ترومان إلى ريغان» طبعة ١٩٨٥ (ص١١).

ولابد أن نذكر في معرض حديثنا عن الكذب والإرهاب، أنه ما من مجموعة إرهابية في معظم دول العالم إلا وتلقت تدريبها في أمريكا أو على يد مدربين أمريكيين محترفين أو على الأقل قد تلقت مساعدات أمريكية إن لم يتم استخدامها لفترات من قبل الإدارات الأمريكية المتعاقبة، كل واحدة بحسب موقعها ومرجعها ومصالحها، فإذا ما أدت هذه الجماعات المهام المطلوبة منها، انتهى دورها.. أما إن خطر لها الاعتراض أو سولت لها نفسها بالتمرد، تم الاستغناء عن خدماتها وانتقل اسمها من قائمة الموالين إلى قائمة المطلوبين.

ومن هذا المنطلق كان الضغط مؤخراً على فرنسا والدول التي تحتضن جماعة «مجاهدي خلق» لتحد من تحركات هذه الجماعة التي تتضمن مبادئها أفكار «ماركسية ـ إسلامية» تخالف كل ما تتبناه السياسة الأمريكية من أفكار ومبادئ.. ويأتي الضغط بذريعة أن هذه الجماعة ترتكب أو تخطط لارتكاب أعمال صنفتها أمريكا في خانة «الإرهاب».

ولكن حين توفرت لدى هذه الجماعة مصلحة لإسرائيل تمثلت في كون هذه الجماعة معارضة للحكم في إيران يأتي كل من دانيال بايبس وباتريك كلوسون وهما اسرائيليان (اعتذاريان) ليقترحا رفع اسم منظمة مجاهدي خلق من لائحة الإرهاب!!

و لم يكن العراق أول من ابتلع الطُعم الأمريكي.. فقد سبقته أفغانستان وابتلعت قطعة مماثلة من الطُعم ذاته حين تلقت المساعدات

الأمريكية لطرد الروس منها، ولكن ما أن غادر الروس المنطقة حتى انقلب الموقف الأمريكي من أفغانستان وطالبان و لم يكن الأفغان عندها سوى أداة في يد أمريكا لدحر العدو الروسي الذي جاء منافساً، ودائماً الذرائع موجودة لأي موقف أمريكي معارض أو مؤيد لأي حكومة أو جماعة.

وتبخرت الوعود الأمريكية للشعب الأفغاني (المحرر) ببلد حُرٍّ يتوفر فيه الأمن والغذاء والرفاهية.. بل إن أمريكا بحربها على العراق أنست العالم أفغانستان وما جرى ويجري فيها وشغلتها عن فشلها هناك.. كما ستشغله، عن فشلها في تحقيق آمال العراقيين، بحرب جديدة قادمة.

المؤسف أنه رغم كل هذا التهور في السياسة الأمريكية إلا أن الاستطلاعات أظهرت أن نسبة الأمريكيين المطلعون على السياسة الخارجية لبلادهم لا تتجاوز ٢٥% وهذا يفسر إمكانية التلاعب بعقول الأمريكيين ويسهل خداعهم من قبل رئيسهم بشكل خاص.. أما النسبة القليلة المطلعة فإن معظم مصادر إطلاعها أمريكية الطرح والتحليل والرؤية ولو أن هناك دائماً استثناءات لكل قاعدة إلا أن الاستثناءات الأمريكية قليلة بما يمكنها من لعب دور منافس لدور صانعي القرار الأمريكي ومنا تتضح أهمية إطلاع الأمريكيين على ما يدور حولهم، وما تضمره لهم حكوماتهم من التجاهل والتضليل، وعلى النهايات التي سيؤولون إليها في تفاعلهم مع الشعوب الأخرى.

إن ما تقوم به الإدارات الأمريكية، بمختلف مؤسساتها، من عمليات التضليل للشعب الأمريكي جديرة بالكشف والتوضيح، علّ هذا الكشف يكون له دوره في تشكيل رأي عام مختلف، له فعاليته في السياسة الخارجية الأمريكية باعتباره كما أسلفنا أيضاً جهة متضررة من هذه السياسة وتدفع الثمن بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

إن الفوضى المعرفية والجهل بالأمور الخارجية واللامبالاة.. كل ذلك يجعل الأمريكيون يخسرون الكثير، وهم الأوْلى بإغلاق صنبور الاستنزاف هذا، وليس عليهم فقط تجفيف المياه المنهمرة منه حولهم وبخرقة لا تستوعب غزارته!!

إن الصمت واللامبالاة، التي يعيشها الأمريكيون، والسياسة الخارجية لبلادهم أوصلتهم إلى ما يعيشونه من أزمات داخلية من تردي الأوضاع الاقتصادية والبطالة وارتفاع نسبة الجريمة وانهيار البنيان الأسري وبالتالي الاجتماعي وغير ذلك من الأزمات المختلفة بسبب انشغال حكوماتهم وتركيزها على السياسة الخارجية على حساب السياسة والمصلحة الداخلية، الأمر الذي أدى إلى تردٍّ كبير في مستوى المعيشة والأوضاع الاجتماعية وحتى الصحية منها.

ولعل كاتباً مثل مايكل مور، حين يصدر كتاباً بعنوان «رجال بيض أغبياء» ليشن عبره حملة شعواء على الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش لما أوصل أمريكا إليه من التردي، جدير أن يجد آذاناً

صاغية تستمع إليه.. تحاوره.. تقنعه أو تقتنع منه، وإذ ذاك تمد له يد العون وتضم الصوت إلى صوته، طالما أنه يؤكد أنه لا يسعى من وراء كتابه أو حملته أو صرخته تلك سوى إلى إعادة وطنه إلى جادة الصواب.. ورغم أن لنا تحفظاتنا تجاه بعض مواقف هذا الكاتب، إلا أننا لسنا معجبون به كلياً، وعلى الطريقة الببغائية، إلا أن ذلك لا يمنع من الاستفادة من مواقفه الإيجابية مثل وقوفه على مسرح عالمي، أثناء تسلم جائزة قيمة لصرخ: «عار عليك يا بوش». وليسمعه العالم ويردد عبارته طويلاً

وكذلك الأمر بالنسبة لجورجن هابرماس، الذي يستحق بدوره الاستماع والإمعان حين يقول:

«لكي يكون حسم النزاع ديمقراطياً، يجب أن يجري من خلال مناقشة صريحة، وغير قسرية للقضية موضوع الخلاف بهدف الوصول إلى حكم متفق عليه»

وجون ستيوارت ميل يؤكد:

«إن الأفكار التي يتصور البعض أنها في صالح المجتمع عليهم بطرحها للنقاش، لكن صحتها أو صلاحيتها في نظرهم لا تبرر إكراه الآخرين على الأخذ بها إن هم أصروا على رفضها. فلو توصل حاكم إلى أفكار متقدمة ورائعة فإن ذلك لا يبرر له فرضها على الناس بالقوة بل عليه أن يعرضها عليهم وأن يقنعهم بها».

ولكن ماذا لو بادر الأمريكيون للقيام بواجبهم لحماية

إمبراطوريتهم هذه؟ ما هي احتمالات النجاح أمامهم؟ بل ما هي الوسائل الممكنة والمتاحة والسريعة لتحقيق ذلك؟

نعتقد أن أهم ما يجب أن يفكروا به هو الوقت.. لأن الوقت لم يعد في صالحهم ـــ فإن أي حلٍ ممكن يجب أن يكون سريعاً.. بل وأن يسير بأقصى سرعة، لأن المنطق يقول أن هناك دائماً نقطة (صفر)، وهذا يعني أن احتمال البداية قائم باستمرار، والقوالب متوفرة، ولن يطول الحال بالأمريكيين المذعنين للتنويم المغناطيسي الذي تمارسهم حكوماتهم أن ينتقلوا إلى حال الوعي النقدي الذي سيضعهم فوق منصة القاضي، ويضع حكومتهم فوق كرسي الاستجواب، مطالبين بحقهم في معرفة كل ما يحصل، وحقيقة أسباب أوضاعهم الداخلية والخارجية، رافضين الأجوبة الجاهزة والردود المسبقة الصنع، مركزين استجوابهم لها على المستقبل والاحتمالات الممكنة فيه، ساعين إلى الخطو نحو الأمام، متطلعين إلى استقرار مطلق وأمان كامل لأنهم يستحقونه.. ولا يفتقدون مقوماته، فلما أصبح محرماً عليهم؟ مع أنهم يملكون الحرية.. الديمقراطية.. الفكر.. والقدرة على التعبير والتغيير، وهذا ما لا يتوفر للشعوب الأخرى، فلماذا لا يفعّلون أنفسهم؟ ولماذا هم مضطرون لتجميد هذه الامتيازات كلها، فيقبعون في بيوتهم يتناولون «البوشار» ويحتسون «الكولا» ويشاهدون التلفاز؟ وكلهم ثقة بأن حكوماتهم تحميهم من أي شر يتربص بهم.. إنهم يستحقون الأمان ويجب أن ينالوه.. يستحقون الاستقرار ويجب أن يناضلوا من أجل أن يستمر.. ويستحقون الحياة

الإنسانية الحقيقية فيجب أن يعيشوها بكل دقائقها وفاعليتها وجماليتها، وأن يخرجوا من القوالب المجمدة والمحنطة التي أدخلتهم فيها سياسات مغرضة، قد تحدثنا قبلاً عن مخططيها وراسميها وملونيها. كما عليهم أن يتنبهوا أخيراً إلى ضرورة تحمل مسؤوليتهم في كل ما يجري، داخل وخارج أراضيهم على يد حكوماتهم، مسؤوليتهم في استمراره وفي إيقافه، فهم لا يقبلون أن يكونوا مجرد أفواه تأكل، وأجساد تتمتع بالسير أثناء نومها، لأن من شأن كل ذلك أن يسبب لهم المزيد من العزل عن أمريكيتهم الحقيقية التي كانوا يفاخرون بها، كما عن بقية شعوب العالم وعواطفهم الصادقة نحوهم والتي منحت أسلافهم من قبل ثقة الناس وإعجابهم بل وانبهارهم، وهي صفات لم يعد لديها ذلك التأثير على أحد الآن.

يستطيع الشعب الأمريكي، وكسباً للوقت، أن يجعل رئيسه يختار بين مصالحه مع الإدارة الحاكمة والمستشارين فيها واللوبي الصهيوني هناك وبين مصالحه مع شعبه، وإن رفض فليسارع الأمريكيون مثلاً إلى الحجر على رئيسهم ومستشاريه بدعوى أن الغرور المدمر قد نال منهم ما نال، بحيث بات وجودهم في أماكنهم هذه يهدد الصالح العام والأمن العام و.. الشارع العام، تماماً كما يفعل بعض الأبناء العقلاء بأولياء أمورهم حين يبدأ هؤلاء بتبديد ثروة الأبناء على المفاسد والمصالح الخاصة مدمرين مستقبلهم كما دمروا ماضيهم بالبحث عن تلك الثروات جمعها؟.

وقد يسحب الأمريكيون ـ كحل فوري وسريع ومنقذ ـ

ثقتهم من رئيسهم الذي تولى أمورهم بفارق بضعة أصوات اشتراها له أصحاب المصالح؟!! أو على الأقل ألا يعيدوا تسليم زمام أمورهم له مرة ثانية مهما كانت الشعارات الجديدة التي يضللهم بها، ليثبتوا له ولحكومته أن سياستهم الهوجاء وتحقيرهم للرأي العام الأمريكي والعالمي لن يبقَ، لن يستمر، وأنه (الرأي العام) لن يبقى دائماً قابلاً للاحتواء بعدما كان قابلاً للانصياع..

هل فكّر الأمريكيون بالإضراب،مثلاً، عن كل مظاهر الحياة في بلادهم وخارجها ليُجبروا حاكمهم هذا على الاستقالة قبل ارتكاب المزيد من الجرائم بحقهم هم قبل غيرهم.. كما أُجْبِر غيره قبله على الاستقالة، ولو بطرق أخرى، من أجل فضيحة مالية أو غير ذلك.. لقد حاكم الأميركيون الرئيس السابق بيل كلينتون في فضيحة أخلاقية لأنه فرّط في حقهم عليه بالصدق معهم.. وتأثروا بدموعه فقبلوا اعتذاره.. فلماذا يتجاهل الشعب الأمريكي الآن تفريط رئيسهم الحالي بأمنهم واستقرارهم؟!! لماذا يتركونه يكذب عليهم؟ ساخراً من مداركهم.. قبل حقوقهم..؟!! لماذا يتركونه يلغم عيشهم ومعيشتهم..؟!! لماذا يتركونه يزرع ألغامه خارج أسوارهم وهو يدرك أنها ستنفجر داخلها..؟ لماذا لا يحاسبونه على تسليمه رسن الفرس الأميركية ليد اليهود الصهاينة الذين يقامرون بأرواح الأمريكيين لمزيد من المكاسب والمصالح وحسب المخططات الصهيونية؟..

إن إيلاء وسائل الإعلام على مختلف أشكالها الأهمية اللازمة، من شأنه أن يكشف النقاب عن حقائق جمة قادرة على إيصال الحقائق

على أهلها وإلى المهتمين بها، على أن يكون لهؤلاء المهتمين القدرة على انتقاء وفهم غاية هذه الوسائل ومآلها. ولن يتاح لهم ذلك ما لم يكونوا على اطلاع واسع على كل ما يدور في الكرة الأرضية ما له تأثير على أوضاعهم هم، إذ كيف يفهم الأمريكيون حقيقة موقف الحكومة الأمريكية من ليبيريا وضرورة تغيير الحكم فيها مثلاً، ما لم يكونوا على بينة من الأوضاع هناك، وما لأمريكا من مصالح في تلك البقاع؟ وبهذا فقط يعرفون إن كان من واجبهم الانتصار لرئيسهم وقراراته ذات الصلة، أم الاستنكار والرفض له؟ والأهم من ذلك كله أن يعرفوا نتائج هذه القرارات على مصالحهم كشعب ومصيرهم كأمريكيين وليس على مصالح الحكومة الأمريكية.

يقول نورمان سولومون، الصحفي الأمريكي المتخصص في وسائل الإعلام الأمريكية:

«إن نظامنا «الديمقراطي» القائم على وسائل الإعلام يجعلنا جزء من حلقة تسويقية سريعة، خصوصاً في أوقات الأزمة، فدوران الإلام سريع للغاية، واستطلاعات الرأي تقيس تأثيراته. أما نتائج الاستطلاع فيستفاد منها لمزيد من الدوران الإعلامي ويقال لنا بفخر أن الرئيس يحظى بنسبة مؤيدة مرتفعة جداً في صفوف الشعب الأمريكي ـــ على غرار الأرقام التي تؤيد الحرب: لقد برع التلفزيون فعلاً في خدمة مصالح البيت الأبيض».

ويتابع:

«أن نشاهد التلفزيون بسذاجة يعني أن نخضع أذهاننا لعملية تخدير. فما يقدمه التلفزيون اليوم، ربما أكثر من أي وقت مضى، هو التخدير في وجه الإدراك. وبصفتي مشاهداً مذهولاً، أرى أنه يتم بلا انقطاع دفع السياسة نحو الحدود الضمنية للتعاطف ـ فالأرواح البريئة في الوطن ثمينة بلا شك، أما الأرواح البريئة في أفغانستان فلا قيمة لها تقريباً. وبفضل المؤثرات المتطورة تكنولوجياً يقدم لنا جهاز التلفزيون مناطق واسعة من الوهم، مقنعة برفاهية السلع التجارية وبرامج التسلية المكثفة والحملات الترويجية، وإذا كنا مضطرين للمشاهدة، فمن الضروري أن نميز جيداً ما نراه».[1]

إننا نسرد على القراء أقوال أمريكيين تحديداً وغربيين آخرين، لنؤكد أن الحملة على الحكومة الأمريكية والسياسة الأمريكية الرسمية ليست عربية أو إسلامية تقوم بدافع الغيرة والحقد على (الحضارة) الغربية كما يدعي فوكوياما، ولا هي من منطلق تعصب ديني أو عرقي إنها فقط وفقط مطلب إنساني، من منطلق إنساني يحق له المطالبة بتطبيق الشرائع السماوية أولاً والقوانين الدولية ثانياً والكثير الكثير من بنود الدستور الأمريكي ثالثاً، فهل نحن على خطأ في مطالبتنا هذه؟

إن الشعب الأمريكي، وإن ضُلل بتبريرات حكوماته لسياستها الجائرة ضد الشعوب والحكومات الأخرى، بأنها، أي حكوماته، إنما

(١) جريدة النهار ٢٠٠١/١٢/١١ ترجمة جومانة حداد.

تفعل ذلك من منطلق حرصها على مصلحة الشعب الأمريكي ومكانته بن الشعوب الأخرى وليبقى فخوراً بنفسه وأمريكيته، ولأسباب أخرى ادعتها كثيراً، فإنه لا يقبل أن يكون له كل ذلك على حساب الشعوب الأخرى وأمنها واستقرارها. وحين قال الرئيس بوش:

«الأحداث المأساوية تدفعنا إلى الالتزام بقيمنا العميقة، ,أنه يجب علينا أن نعانق أولادنا ونحافظ بكل ما أوتينا على من نحب» تأتي تساؤلات أمريكية شعبية من كل الجهات أنْ: ماذا عن غيرنا من الشعوب؟ أليس لهم الحق في أن يحافظوا على من يحبون؟ أليس لهم أولاد يودون معانقتهم؟ وتأمين الأمن والسلام لهم؟ يستمر سيل التساؤلات: ماذا ستُفرز مشاعر الغضب والخوف عند الآخرين المضيق عليهم في أمنهم ورزقهم وهوائهم؟ لماذا يدرك الخطأ بعد فوات الأوان؟

لقد بقيت أمريكا تتعامل بعنجهية وغرور مع العالم وذلك عبر تصنيف الأنظمة بين موال ومعارض و..خطر. وهذا الأخير له تصنيفه الخاص حسب خطورته وجرأته على التمرد والتمادي في ذلك، ومن هنا تحدد نوع الخطر وكيفية التعامل معه. إلا أن عنجهية أمريكا قادتها، كما يتطلب المنطق، للخطأ، فقد تجاهلت أن للضغوطات التي تمارسها إفرازاتها المختلفة، وليس الاستسلام هو الإفراز الوحيد، وليس الخنوع هو رد الفعل الطبيعي على أي ضغط، وليس الغضب والخوف فعلان ساكنان، بل هما حرفا جر لابد لهما

من مجرور الذي هو رد الفعل الطبيعي، ولأنها تجاهلت وجوب المجرور وراء الجار (حرف الجر) ظناً منها أن هذا الأخير قوي لدرجة تغنيه عن المجرور، فتناسته.. أو ربما تعمدت عدم توليته الأهمية اللازمة، ولهذا دفعت الثمن، وما تزال، في كل مكان تتواجد فيه، ففي أمريكا هي مستهدفة وخارجها هي كذلك، أمريكا، رغم كل شيء، تعيش عدم الاستقرار وانعدام الأمن لأنها تجاهلت الآخر..

يقول الكاتب والباحث الجزائري محمد جربوعة في كتابه «الجماعات الإسلامية وتحديات الخروج من الزوايا المعتمة»:

«لقد أدركت أمريكا غلطتها بعد فوات الأوان حين اكتشفت أنها ارتكبت أكبر أخطائها حين سمحت بوجود تلك الأجواء التضييقية في الأقطار التي هاجر منها أولئك الإسلاميون، ولو أنها اقتطعت لهم جزء من الكعكة قبل هجرتهم تلك لما حدثت تلك الهجرات».[1]

كما يؤكد الكاتب في دراسته المذكورة أعلاه أن بعض الجماعات المضيق عليها اضطرت للهجرة الفكرية بعد أن عزت عليها الهجرة المكانية، بمعنى أن هذا التضييق قد أفسح المجال للبحث عن حل ممكن مع وجود التخدير المقصود للحركة، وهذا بدوره وحّد الجهود باتجاه عدوٍ واحد أينما كان موجوداً، مما يجعل عملية استهدافه

(١) محمد جربوعة «الجماعات الإسلامية وتحديات الخروج من الزوايا المعتمة» إصدار المركز العالمي للدراسات الاستراتيجية ٢٠٠٣ ص ٤٨.

أسهل، وما يجري الآن من استهداف للمصالح الأمريكية وقواعدها الاقتصادية والعسكرية إنما هو مؤشر على ما قيل ويقال. ونعود لنتساءل:

لماذا يصمت الأمريكيون إزاء كل ذلك الاعوجاج في سياسة حكوماتهم؟ وهل حقاً لم يدركوا حتى الآن أنهم واقعون في فخ من التضليل لن يفلتوا منه ما لم يقرروا ذلك ويعملوا في سبيل ذلك؟!! ومتى يتحركون؟ آن لهم أن يعوا هذه الحقيقة خصوصاً أن الأمر ليس بجديد، و لم يأت مع هذه الحكومة؟

ومن يقرأ كتاب ديفيد وايز «سياسة الكذب» يمكنه الإطلاع على حبل له أول وليس له آخر من الكذب والتضليل والافتراء والتلفيق الصريح «لقد تغلغل كذب الحكومة حتى صار كفطيرة التفاح أمريكياً خالصاً..»

ورغم أنه ما لبث أن أغلق بسبب الاحتجاجات عليه، إلا أن إنشاء «مكتب النفوذ الاستراتيجي» الذي تتلخص مهامه في زرع الأخبار المزيفة في الصحافة الأجنبية هو من مؤشرات «سياسة الكذب» الدائمة لدى الحكومات الأمريكية المتعاقبة.

قد تضطر الحكومات للكذب، لتطمئن شعوبها لا لتخدرهم.. لتنقذهم لا لتورطهم، وقد تكذب تجنباً للإحراج، أو لحماية المصالح من الدمار، لكن ليس على حساب الغير ليس لتحقيق المصالح على حساب الغير، أياً كان هذا الغير. لكن أن يصبح الكذب هو النقاط

المنثورة على حروف السياسة الخاصة والعامة للحكومة، أية حكومة، فإنها سرعان ما ستدرك أنها تمسك بمنجل سوف يجتث مصداقيتها وثقة الناس بها التي هي أساس الديمقراطية الحقيقة التي راحت أمريكا تتحرك باسمها في كل مكان.

إنها الطريقة الأمريكية في نشر الديمقراطية التي يبدأ باسمها الكذب والمراوغة منذ الخطوات السياسية الأولى لأي دبلوماسي أمريكي، حيث ومنذ تواجده الأولي في الكونغرس، يشن العضو هناك، وخاصة منهم من لديه طموحات سياسية ومصلحية عالية المستوى، يشن حملة لغوية يستعرض خلالها إمكاناته في هذا المجال وخاصة مسألة تحديد المصطلحات والمفاهيم التي تحتمل وجوها مختلفة من المعاني والتأويلات ليتم تفسيرها حسب الطلب، مع أنهم يتنكرون لتفسيراتهم ذاتها حين تناسب الآخر الذي لا تربطهم معه المصالح المرغوب فيها والساعين إليها. ها هو السيناتور آرلن سعيد يحدد مفهوم الإرهاب ويفرق بين الإرهابي والمقاوم، فيقلب الصورة فيضع الفلسطيني في الإطار (الإرهابي) ويؤطر الإسرائيلي بـ(المقاوم) الذي يدافع عن نفسه من الإرهابي، فيتحدث عن بعض الجرحى الإسرائيليين (المساكين) الذين يصابون أثناء العمليات الفدائية التي يقوم بها الفلسطينيون ضد الأهداف العسكرية، ويصورهم على أنهم ضحايا مساكين من المدنيين، بينما يعتبر المدنيين الفلسطينيين الذين يستشهدون أثناء القصف الإسرائيلي للمدن الفلسطينية، وأولئك الذين تُدكّ بيوتهم فوق رؤوسهم لأنهم رفضوا مغادرتها لأنهم لا

يملكون ملجأ سواها يغادرون إليه، وكذلك الأطفال الذين يلقون حتفهم قصفاً وقناصة وتفجيراً ودكاً.. كل هؤلاء مجرد ضحايا بالخطأ الذي (يسعى) الجندي الإسرائيلي ألا يكون، لكنه يكون!! فهو قدر، ولذلك لا تسمى أعمالهم هذه إرهاباً.. وعلى هذا تندرج في هذه القائمة من (اللا إرهاب) كل المجازر التي ارتكبتها (بالخطأ) الآلة الإسرائيلية. ومنذ بداية احتلالهم لفلسطين، مع أنهم كانوا يحاولون ألا تقتل تلك الآلاف في كل (مجزرة)؟!!

ولا ندري كيف فسر هذا السيناتور كلام الرئيس الأوغندي يوري موسويني Yori Mosowini بشكل مقلوب مع أنه بالغ الوضوح، حتى وإن كانت نوايا الرئيس المذكور تلمح إلى أشياء أخرى حين علّق الرئيس موسويني على مصطلح الإرهاب قائلاً:

«إن النضال في سبيل الحرية ليس مطابقاً للإرهاب. وينبغي على المرء إن كان مضطهداً أو خاضعاً للاحتلال أن يناضل في سبيل الحرية. ويمكنه أن يناضل بوسائل سلمية كما فعل غاندي، كما يمكنه حمل السلاح كما فعلنا نحن. إن هذا لا يجعل مني إرهابياً، أما إذا تعمدت استهداف غير المقاتلين، فإنني أكون عندها إرهابياً».

إن كلام الرئيس لا يحتاج إلى تفسير، ولا إلى شكر، فالمعنى واضح والكلام ليس بجديد. إلا أن أمريكا لا تنفك تكيل بمكيالين، فللأصدقاء مكيالهم وللأعداء كذلك. وما ينطبق على هؤلاء لا ينطبق على أولئك.

فبأي آلاء ربها تكذب أمريكا؟!! ومن هي حقاً الأغلبية الصامتة التي يتحدث عنها توماس فريدمان؟ ومن الأجدر بالكلام: الأغلبية الصامتة قسراً؟ أم الأغلبية الصامتة طوعاً وجهلاً؟ فإن كان توماس فريدمان معجباً بشعبه الصامت، وبمصطلحاته التي يلقيها على الآخرين جزافاً، وإن كان مصراً عليها، فليوظفها حيث يجب، لا حيث يحب أن يفعل. لأنه ومعه فوكوياما وهنتنغتون وسواهم من الذين يوزعون نصائحهم واستشاراتهم على الساسة الأمريكيين الذين تدفعهم أفكار هؤلاء دفعاً للكيل بمكيالين، وإساءة معاملة (الآخر) انطلاقاً من فهمه حسب منظور هؤلاء المنظرين، فإن هؤلاء يمثلون جزء كبيراً من أزمتنا..بل من مصائبنا. وعلى هذا فإن التوجه إلى هؤلاء ومحاورتهم والرد عليهم بلغتهم الفكرية ومن منطلقاتهم ذاتها يمثل جزءاً من الحل. وهنا تكمن أهمية نظرية الشبكة التي أشرنا إليها في موضع آخر من هذا الكتاب، إذ أن إيلاء هذه النظرية الاهتمام اللازم، وأخذها بعين الاعتبار عند تحليل وتفسير الظواهر الاجتماعية والعلاقات الإنسانية وحتى المصلحية، من شأنه أن يثبت أقدامنا على المسار الصحيح لمواجهة الهجمات الفكرية الغربية الشرسة علينا، بعيداً عن الشعارات البراقة والكتابات الممجوجة التي يطرحها غالبية كتابنا ومفكرينا، مكتفين بالتنديد والنكران والاستنكار بعيداً عن المحاججة القوية والمنطق.

obeikandl.com